مكتبة
٢٠٠٠
الأسرة

مهرجان القراءة للجميع
2000
لعشر سنوات

الأعمال الإبداعية

صح النوم

يحيى حقي

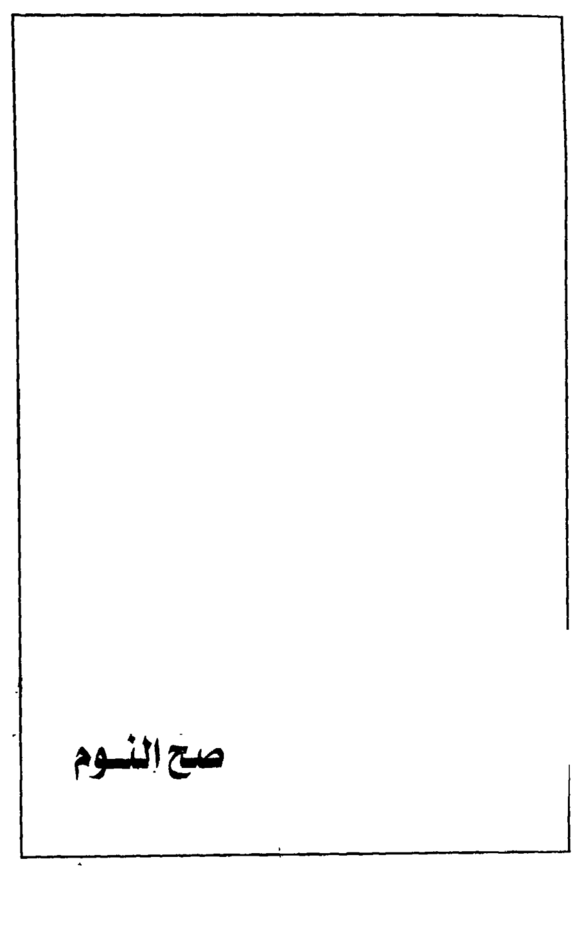


الهيئة المصرية
العامة للكتاب

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية



صح النوم

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى: صورة فوتغرافية ليحيى حقى

عرفت مصر التصوير الضوئى قبل أن تعرفه كثير من الأمم، وكان محمد على باشا والى مصر أول مصور فى منطقة الشرق الأوسط. واقتصرت ممارسات التصوير آنذاك على التقاط صور شخصية (بوتريه) للحكام وكبار رجال الدولة بواسطة المصورين الأوروبيين الذين كانوا يجوبون الآفاق بحثا عن لقمة العيش، مستخدمين مهارتهم فى هذا الفن الجديد. فحين قام الزعيم أحمد عرابى بحركته الوطنية حرص على أن تلتقط له ولكل زملائه العسكريين صور فوتوغرافية،ولقد كانت رحلة التصوير رحلة شاقة وشيقة من حيث التطور المذهل والمعطيات الفنية المستمرة والتى لاتنقطع بحال من الأحوال. وقد سردنا من قبل قصص تطور التصوير الفوتوغرافى منذ كان فكرة إلى أن اكتمل فى وأبلغت به أكاديمية الفنون والعلوم الفرنسية، وتم اختصار زمن التعريض من بضع ساعات إلى مايقل عن ال ٣٠ دقيقة؛ وقد أنتج أحد مصانع ألمانيا كاميرا تلتقط مائة صورة فى الثانية الواحدة.

محمود الهندى

صح النـوم

يحيى حقى



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

صح النوم

يحيى حقى

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

١ - قريتنا

أكانت * تكون بدعة أو خرافة لو مر بنا شريط السكة الحديدية ؟ ان نظرة سريعة من عل الى الخريطة توصل بين المدينتين كالخيط بين شقى رتق واسع ، لا تنعرج الا بمقدار شعرة لو ألمت بقريتنا الراقدة بين الغيطان .

واشتعلت الأقاويل فى العاصمة تؤكد ان الخط مرسوم عن عمد ، ليخدم أرضا بعيدة عن العمران ، يملكها نائب ذو جاه فى القرية المجاورة ، أما عشيرتنا فقد أدركت أن مروجى هذه الاشاعات هم خصوم النائب ، وابتسمت وتركت بعضهم ينهش لحم بعض . وحمدت الله أن ابتعد عنا الخط ووجع الرأس .

* انتهى المؤلف من كتابة رواية صح النوم ؛ فى ٦ فبراير ١٩٥٥ ، ونشرت طبعتها الأولى فى ابريل من العام نفسه .

ولكن لابد للمسألة من تفسير ، فقال أبناء قريتنا ، وسترى من قولهم أنهم أهل ظرف وتسامح وطيبة : ان المهندس كان اما حنبليا فرسم الخط بالمسطرة لم تلتفت عينه يمنة أو يسرة ، أو مخمورا فلم تع رأسه المملوءة بالطنين أو الألحان نداء قريتنا اليه: اننا هنا ــ يا أخى ــ على بعد فركة كعب من خطك •

وبعض أهل القرية يرجح الفرض الثانى بغمزة عين ، لأنهم هم كذلك من عشاق بنت الكرم ، ولا يعذر المتيم الا متيم مثله •

ولم تغضب القرية لما حدث ، فأهلها معروفون أيضا فى المقاطعة بسذاجتهم وتوكلهم على خالق الكون مقسم الأرزاق •

فهم لا يحبون كتابة العرائض ، مبرقشة بالأختام وبصمات الأصابع يحررها الصراف ، ولا برقيات الاحتجاج يدبجها المعلم الالزامى بانشائه البليغ ، ولا اللف على الدواوين بقيادة عمدتنا العجوز وقد تزهق روحه من طلوع السلالم •

ولو أرادوا المشاكسة لما استطاعوا ، فقد مات عنا منذ زمن بعيد وجيه القرية ، الذى يملك أكثر أراضيها ومبانيها وكان هو الذى يدافع عنا ــ أم تراه يدافع عن مصالحه الشخصية ! ــ بحيل له كثيرة•• فللمال سلطان يلتمس له كل المعاذير وتفتح له كافة الأبواب ــ وخلف من ورائه ابنا لا نعرفه ، لأن أباه أرسله منذ الصبا الى العاصمة لطلب العلم وبقى بها منقطعا عنا ، مكتفيا بأن

يرفع اليه الوكيل ايراده كل سنة • لا نعرف أخباره الا بالسماع فثبت لدينا ــ ومن أجل ذلك سامحناه ــ انه اجتاز المدارس كلها بنجاح باهر لأنه أحب العلم وأوغل فى طلبه ايغالا شديدا ولذلك اصطلحنا على أن نطلق عليه لقب « الاستاذ » وان كنا لم نره • وسمعنا كذلك أنه كان قد اعتزم القدوم الينا فشغله شاغل جديد لا نعرفه ، ولكنه هو الذى قيده بالدار فى عزلة من الناس ، فلعله يدرس مشكلة عويصة أو يفكر فى أمور خطيرة •

ورضيت القرية بحرمانها وقال الحلاق :

ــ ان رؤية القطار على بعد ميل أبهى بكثير من رؤيته عن قرب ، وبخاصة فى الليل ، حين تنساب أنواره ، فكأنما هو دودة ضخمة رشيقة مضيئة من عجائب صنع الله ، تزيد خلقته جمالا على جمال • وما أكبر الفرق بين صفارة القطار تسمعها عن قرب فتصم أذنيك وتزعجك وبين أن تصل الى سمعك كأنها نذير من وراء الحجب ، فتهصر ولولوتها البعيدة قلبك وأنت راقد فى فراشك تحسب أن الكون قد استسلم لنمط واحد ، فاذا بك تحس فجأة أنه فى تبدل مستمر واجتماع وفراق •

وقال العمدة :

ــ لن تزيد الحرائق فى قريتنا ، ولن تزيد بالتالى ضريبة مآدبنا لمعاون البوليس وجند المطافىء اذا هبطوا علينا من المدينة،

ثم ان الله نجانا من نظار المحطات ، وأكثرهم من أقسى المرابين لأن أصلهم من الفلاحين ، والفلاح لا يدفع شيئا اذا أردفه جاره على ظهر دابته ، ولكن هذا الغنم المبذول عند أهلهم بالمجـان ، يبيعونه هم طول اليوم بثمن عزيز ، والقطار سائر سائر بأمـر الحكومة ، ولو كان خاليا ، فما ضرهم لو باعوا هم أيضا القليل العاجل بالكثير الآجل ؟ فتأصلت فيهم موهبة الرياء وهي جزء من مكرهم الأزرق .

وقال المسـاح :

ـ ان منازل القرية المتداعية ستظل كاخوان الصفا متماسكة بعضها في حضن بعض لا تزعزعها زلزلة القطار .

وقال معلم الرسم في مدرسة القرية :

ـ ستبقى جدران بيوتنا بيضاء لا يشوهها الدخان ولا تموت تلك الزهور الجميلة التي تقاسمنا النوافذ فتطل علينا كما نطـل عليها ، وان كنا لا ندري رأيها في رائحتنا نحن !

أما أكثرنا سرورا فهو سائق العربة الوحيدة في القرية ، وهي عربة بحصان فرد ، قد ضمن رزقه وعلف جواده ، بنقـله الركاب ـ وأكثرهم من موظفي الحكومة أو التجار الغرباء ـ بين القرية والكشك الصغير الذي أقامته المصلحة على الجسر بين القريتين وسمته « محطة » وان كان ليس لها رصيف ، لا يقف

عليها فى النهار أو الليل الا قطار واحد فى الذهاب وآخر فى الاياب • من تلك القطارات التى تسمى « المتلطعة » ، ونسميها نحن من باب الفكاهة « بالمستعجلة » •

وتمنى صاحب العربة لو رأى هذا المهندس فربت على كتفه ودعاه الى نزهة مجانية فى عربته وخصه ، وهو يدير اليه رأسه وجذعه بالتفاته ونظراته وحديثه ، فالجواد خبير بالطريق لايحتاج الى سوطه أو « تشك تشك » من لسانه ، وكلاهما فى اللسع واحد لأن الجواد ـ على تعبه ـ كريم ذو حياء ، ووجد السائق حديثه المعاد شهيا لأنه يقع على أذن جديدة ، أما حديثه مع الجواد فقد انتهى منذ زمن بعيد ، وفهم كل منهما صاحبه ، وأدرك متاعبه وأسراره ، وليس فى حياتهما الا عناء وملل •

وأهل القرية أسرة واحدة كبيرة معروفة بالكسل ، قليل تنقل أفرادها ، ولكن اذا جاء النداء هبت جماعتهم ـ كما ينطلق سرب الطيور المهاجرة فجأة من على الشجرة ـ وسافرت لحضور مولد السيد ووفاء النذور ، فلا يضيرهم قطع الطريق الى المحطة مرة كل عام • ومن بركات السيد أن جاء مولده فى أواخر الربيع حين لا شمس محرقة ، ولا أوحال تنغرز فيها أرجل الناس ، أو قوائم الذبائح ، واذا سألتنى عن شىء أذكر به هذه المواسم قلت لك : انه خوار هذه الذبائح ، اسمعه عن بعد ، فأحس منه أنها تودع صغارها الوداع الأخير •

وهكذا ظلت قريتنا فى مأمن من فضول الغرباء والمسافرين ، وتطلعهم الينا ، وما قد يتحفوننا به من البقايا المتناثرة من الطعام والفاكهة ، ومن بقايا آخرى تحرمها تعليمات مصلحة السكة الحديدية اذا وقف القطار فى المحطات ، ولكن أين من يضمن اطاعتها ؟

وأدركت أن مسألة شريط السكة الحديدية قد انتهت وانقطع كل أمل فى مروره بنا ، لما رأيت واعظ القرية يخرج عن صمته حين أقبل يخب فى ثوبه المقلم بالأحمر والأخضر كريش الديك ، حتى أخذ مكانه على يمين العمدة ونحن نشرب الشاى عنده ذات مساء، تنحنح قليلا ثم قال بصوت جهورى مخاطبا العمدة ، ملتفتا الينا جميعا :

ـ نعم العمل عملك ! هكذا تكون الحكمة والسياسة وبعد النظر ، كأنك ترى من وراء الغيب . وأن هذه القرية لم تسعد الا فى عهدك الزاهر فأنت الذى تدرأ عنها الأخطار والمتاعب ، عهدك كله خير وبركة ، لا حرمنا الله منك ، اننا لولاك لا نساوى شيئا ، اننى أدعو الله فى كل ركعة أن يطيل عمرك ، ويوطد مجدك .

وهب من مكانه وجرى الى العمدة وهوى على يده يصر على أن يقبلها ، حتى كاد يندلق كوب الشاى على ثياب العمدة ، وأخذ الواعظ يمسحها بكمه وهى لم تتلوث .. قائلا :

ـ أستغفر الله .. أستغفر الله ، لا حول ولا قوة الا بالله ..

٢ ـ صاحب الحان

وبقيت للقرية دنياها . اذا آتى المساء ـ سواء أكان القمر هلالا أم بدرا ـ وفرغ الرجال الكادحون من عملهم ، تسلل بعضهم الى الحان حيث يشربون النبيذ ويلعبون الورق ، ويأكلون من الطعام ما لو قدم اليهم فى منازلهم لاستهانوا به ، ولاموا زوجاتهم عليه أو ازدردوه على مضض ، ولكنهم فى الحان يجدونه لذيذ الطعم شهيا تدور عليه الأحاديث والأسمار والنكت والضحكات ، وقد تجردت القلوب من الغم والهم . ونجت من مشاكل الدار وحديثها التافه المعاد الممل ..

ويجوس خلال الموائد صاحب الحان . وهو رجل بدين ، خفيف الحركة ، ضخم الرأس ، قصير القامة ، بشوش الوجه ،

يعرف الجميع ويناديهم بأسمائهم فعل الصديق بصديقه • وقد سألته مرة كيف اختار هذه المهنة ؟ ألأنه ورثها عن أبيه ، أم لأنه هو أيضا من عشاق الخمر ؟ وعندنا مثل يقول : « اذا تابت البغى انقلبت قوادة » • فقال لى وهو يضع ذراعه على كتفى :

ـ كنت أحسبك تعرفنى ولا تحتاج لهذا السؤال • فأنت ترى أمرى مفضوحا لمن له عينان تبصران مثلك ـ على الأقل فيما أؤمل ـ أقول لك أولا اننى لا أحب الهم ولا حمل الهم ، والحياة خذ وهات ، فاذا أردت أن تسعد فعليك أن تسعد غيرك أولا • والخمر هى للانسان منذ قديم الزمان أكبر متعة ، فأنا أعيش أبدا فى جو مرح • حقا ان الخمر تبعث بعض الناس على الحزن ، وتسيل من الدموع ما قليله صادق وكثيره كاذب ، ولكنك ترانا هنا أسرة واحدة ، يعرف بعضنا بعضا ، فماتت بيننا تلك النزعة الخبيثة التى تسمى الاعتراف ، وهو داء يصيب بعض السكارى ، اذا وجدوا أنفسهم بين الغرباء •

ـ هل تمكر بى ؟ أنت تعلم أن المرح يطيل العمر ، فقصدك أن لا ترتخى قبضتك على الدنيا الا اذا غاصت على مهل آخر قطرة من ماء الحياة فى جسدك ، كما تهز أنت زجاجة الخمر الفارغة لتجود لك بعرق جدرانها ••

ـ لا يهمنى عدد السنين التى أعيشها ، ولكن يهمنى نوعها • فأنا سأعيش يومى هذا الذى أنا راض به سعيد ما شاء القدر لى

أن أعيش ، فلا تستطيع أن تقول عنى اننى سأموت شابا أو شيخا ، فلن أخسر شيئا اذا مت غدا ، ولن أكسب شيئا اذا عشت ــ كما تقول ــ مائة سنة أخرى •

وصمت صاحب الحان وهو ينظر الى مبتسما ويقول :

ــ هل فهمت ؟

ــ نعم ، ولكنى هذا ما كنت أتوقعه فيك من قبل ، فأنت لم تزدنى علما •

ــ أرى النتائج عندك سليمة ، ولكن الأسباب باطلة دائما ، وستعيش طول عمرك حائرا مع أنك على حق ••

ــ كنت أظن الحلاق فيلسوف القرية فاذا بك أدهى منه ••

ــ اهزأ بى كما تشاء ، فهذه عادتك التى أرجو لك الشفاء منها لأنها تحمل القلب على الفقر لا الغنى ــ ولكنى سأبرهن لك على صدق نظرى ، فأفضى اليك بشىء جديد لم تفهمه من قبل •

وفارقنى ليلبى طلب أحد رواد الحان ، ثم عاد وصب لنفسه كأسا وشربه ، ثم قال وهو يميل على :

ــ ان هذه المهنة هى التى تجعلنى أرى الناس على حقيقتهم، عراة كما ولدتهم أمهاتهم •

ــ بعض الناس يظن أن هذا شىء مخيف •

ــ لا • العكس صحيح • ان أصحاب هذا القول هم أشرار الناس يخشون أن ينكشف الستر فينفضحوا هم أولا • ولكن خذها عني ، ان عاهات النفوس شيء بشع ، لأنها المخلوق الوحيد الذى لا يعيش الا مختنقا ، فاذا أتحت له التنفس مات • ونحن نتنفس هنا ••

ثم هز جسده وطمطم بشفتيه يقلد رعشة المحموم ، وقال:

ــ انني أمقت الكذب والرياء والنفاق والخداع ، لا لأنها تصيبني بأذى ، بل لما أراه من أذاها بأصحابها • انها تمسخ البشر ، وأنا أحب الناس وأريد أن أعاشرهم وهم على الفطرة التى أرادها الله لهم سبحانه • انني لا أستطيع الحياة الا فى هذا الجو وبهذا الشرط •

انصرفت عنه وأنا أتعجب له ، ورفعت عيني الى تلك اللوحة السوداء التى يخط عليها بالطباشير حساب بعض رواده ، وابتسمت وأنا أرى كيف أنه فى سبيل غرامه بمهنته لا يستعجل بعضهم الدفع ، وأكثرهم مدين له ، وجلست مع حلقة من الأصدقاء حول احدى الموائد ، ولكن ذهني كان لا يزال يفكر فى هذا الرجل البدين ذى الذراعين الغليظين •

بعد أن ينصرف الرواد ــ وآخرهم لا ينصرف الا بشيء من الزجر أو الدفع الرقيق ــ يقفل صاحب الحان أبوابه ويتكىء

بذراعيه على النصب الذى يقف من ورائه ليصب الخمر لمن يحب الشرب وقوفا ــ وهذا الحب يبعثه ثلاثة ، فرط الصبا ، والقلق، واليأس ــ ثم يشعل لفافة تبغ يدخنها على مهل فلا تدرى من حركات شدقيه أهو يشد الدخان أم يحدث نفسه ؟ •

وتجول نظرته بين الموائد والمقاعد الخالية ، ويبتسم مرة يمنة، ومرة يسرة ، ثم يتثاءب وينفض ثيابه بأظافره ، ويطفىء الأنوار وهو يفتح بابا صغيرا ، من ورائه سلم يؤدى الى مسكنه فى الطابق الأعلى ، فيجد السلم مضاء ، فيصعده على مهل ، متعمدا أن تحدث أقدامه ضجة خفيفة لينبه زوجه أنه قادم • وما هى بحاجة الى هذا التنبيه ، فسيجدها كما وجدها كل ليلة « فى الردهة » تنتظره، قد أعدت له الطست والأبريق وملابس نوم نظيفة •

ومع ذلك صاحبنا لذة كبيرة فى أن تحــدث أقدامه هذه الضجة ، لأنه يراها مبدأ حديث الليل بينهما • وترضى نفسه اذا شعرت أنه هو الذى طلبها فجاءت له ، كما تنادى قطتك الأليفة • ولكن أى حديث ؟ انها امرأة نحيفة بقدر ما هو بدين ، لا تتكلم كثيرا ، وقد لا ترد على الجملة أو الجملتين الا بكلمة أو كلمتين ، ولكن نغمة كلامها القليل تنزل على قلبه بردا وسلاما ، ففيها تدليل وزجر ، وحث على الجد وترحيب مستتر بالهزل ، ورضى بالواقع ، وأمل فى قادم أفضل وغفران لماض • فيها الأمر والطاعة ، والاغراء والصد ، والطهر والنزوة معا •• تظهر له التجلد على مشاق الحياة،

حتى اذا أحست أن اعزازه لها يصبح اعجابا خالصا أو اعترافا بالجميل ، أبدت له من الضعف والتعب شيئاً قليلا لا ينوء بهمه ، فاذا رأته يحنو عليها أنكرت من جديد ضعفها وتعبها ــ كل هذا متضمن فى نغمة كلامها القليل المتقطع ، من يقول ان الكلام منبعث من أوتار الحنجرة كاذب وان كان له سند من العلم ان هذه الأوتار موطنها القلب ذاته •

هى امرأة قانتة لا تترك فرضها • تكره التعرى حتى لزوجها، فان لها حياء الناقة الأنوف ، فاذا بهذا الرجل البدين يقف بين يديها موقف الطفل الصغير • ولا تزال به حتى تدفعه الى الفراش وتتضاءل بين ذراعيه وهى التى تضمه ضمة الأم لابنها ، لم يرزقهما الله بولد • فلا عجب ان كان نداؤه لها : يا أماه !

هى ليست من قريتنا ، وكان صاحب الحان قد سافر للعاصمة ليشترى نبيذه ، وعاد لنا بشيئين جديدين : هذه المرأة النحيلة وجرح غليظ فى جبهته ، لم يشأ أن يكشف لأحد عن سره أو سرها ، وعاشت بيننا فى عزلة عنا ، شأن الغريبة لا تزور ولا تزار• كأن زوجها هو عالمها الذى اكتفت به حياتها فلا تطلب فوقه مزيدا ــ لذلك كرهتها نساء القرية ، وقلن مؤكدات انه التقطها من أزقة البغاء أو من اصلاحية النساء ، بل قلن أيضا ان أحدا لا يعرف هل تعاشره فى الحلال أو فى الحرام ••

اذا طلع النهار هبطت الى الحان فكنسته ومسحته ورتبت من جديد موائده ، وأعدت نتف الطعام الذى سيجده رواد الحان شهيا لذيذا ، ثم اذا سمعت وقع أقدام زوجها حين يستيقظ من نومه مع الظهر ، صعدت اليه وغابت فى محرابها •

ونساء القرية يظهرن السخط أيضا على صاحب الحان نفسه فيزعمن أنه هو الذى ينتزع منهن أزواجهن وما فى جيوبهم من نقود قليلة هن وأولادهن أحق بها • وبالرغم من هذا السخط فان حوادث الطلاق والنشوز والنفقة أقل فى قريتنا من بقية القرى المجاورة • فالحان عندنا هو الذى يفصل النساء عن الرجال فترة من الزمن ، تعتدل فيها النفوس وتنسى المشاحنات ، ويعود الرجل لداره وهو أشد شوقا لزوجه وحنانا لها ، وفهما لضعفها الذى تغطيه بكساء من الجبروت •

والمرأة يلذ لها ويسعدها بدافع من عاطفة الأمومة أن تبكت زوجها بين الحين والآخر ، وأن توقفه ــ وان كان بطلا ! ــ بين يديها موقف الطفل المذنب الذى يؤنب ويوبخ ، حتى اذا غضب امتدت له الأيدى المشفقة والأذرع المحبة ، وقال له القلب : انت قطعة منى ، كيف أجفوك ؟ ولكنى لا أزعم أننا أكثر سعادة من غيرنا ، أو أننا لا نعرف المتاعب والمشاكل والمآسى ، فالحياة أينما كانت لا تخلو منها ، وانما أقول ان منوال معيشتنا قد جمعنا له

الخيوط من محيطنا وظروفنا ونسجناها ثوبا مفصلا على قدنا ، ولو لبسه آخر فلعله يضيق به ذرعا • فاختلاف السعادة التى توهب للبشر هو فى النوع لا فى المقدار • وكلما تأملت هذا القول وجدت فيه عزاء كبيرا •

٣ ـ القصاب

يتزعم قصاب القرية ــ وهو يعد من أغنيائها ــ حلقة من أصدقاء يلازمونه ليلة بعد أخرى ، وأنا أحب صحبة هذا الرجل، لأن مائدته أقل الموائد ضجة وثرثرة ، ولأننى آشعر اذا جلست اليه كأننى أنفلت من طريق ضـيق يعج بالناس والدواب فى وهج الشـمس الى حديقة صغيرة ملتفة الأغصـان تقول لى زقزقة عصافيرها : لم الضجة ؟ وفيم الجدال ؟

لمائدة القصاب جو خاص بها يسحرنى بمتناقضاته : هو فى النهار ينطق بالقسوة والتجهم ، تهبط يده بالساطور على اللحم والعظام كأنه تمثال مجسم لشيطان الهدم المكلف بتمزيق الحياة والتهامها ، أو كأنه يضرب عدوا لئيما له عنده ثأر قديم شـديد

الجرح ، تتلوث يداه وملابسه بالدم ، وقد يلطخ به جبينه حينما يمسح عرقه ، وتحسب أن أنفه وعينه تجدان فى هذا الدم لذة مشبعة .

مشيته الوئيدة تنقلب — وهو يحمل الذبيحة من العربة الى الدكان — الى اسراع الكلب المتسلل بعظمة مسروقة ، تزيغ عيناه وترميان بالشرر ، لو اقترب منه انسان لكشر له عن انيابه وزمجر فى وجهه كالوحش .

ولكن كل هذا طلاء كاذب ، هو من أثر المهنة ، ولكل مهنه قناع يخفى وجه صاحبها — فهذا الرجل نفسه حين أقابله بالليل أجده كالطفل الوديع وألمس فيه طيبة متماسكة ثابتة الجذور وهدوءا يستل أنياب ألف سؤال باقية بغير جواب ، وتسليما كأنه قبلة ندية تخرس صرخة النفس فى يأسها من بلوغ الجمال والحق الهاربين أبدا ، وكأنه يقول لك : هذه هى الحياة ، خذها كما تأتى ، اياك أن تظلم أو تؤذى أحدا ، واياك أن يرهقك الجود وان اتهمك الناس بالسفه أو الغفلة والضعف .

وفى حياة القصاب مأساة أليمة ، لعلها هى أيضا مما يجذبنى اليه . يتحدث عنها أهل القرية سرا . بعضهم يعلم بها ولا يتتبع أخبارها ، تاركا الرجل لحظة ، لا يحكم عليه بشر أو بخير . وبعضهم يتشمم أنباءها — ساخرا من الرجل القوى كيف يستخذى

ومن القصاب يصبح خروفا •• وبعضهم — وهم قلة — تزيدهم هذه المأساة محبة للرجل واعزازا ، والعجيب أن نساء القرية — وان لم يجهرن برأيهن — هن من هذا النفر الأخير •

بدأت هذه المأساة يوم أن هبط قريتنا منذ عشر سنوات سيرك متنقل ونصب خيامه على الجسر ، لم يمكث بيننا الا ثلاثة أيام ، ثم رحل ورحلت معه — ياللفضيحة — الفتاة السمراء التى كانت القرية كلها تحبها ، وتتوقع لها أن تتزوج من ابن عمها القصاب الثرى ، تحبها القرية لأنها فتاة جميلة ساذجة جريئة معا ، خفيفة الظل ، ولأنها فوق ذلك يتيمة • أبوها تاجر ميسور الحال عضته أزمة أعقاب الحرب بأنيابها ، فأفلس ومات مقهورا ، وترك زوجه وابنته فى فاقة ، فتقدم القصاب وتولى العناية بهما والانفاق عليهما ورعايتهما • وقال بعض الناس انه يفعل ذلك لا لوجه الله بل لأنه يحب الفتاة السمراء من كل قلبه ويرجو أن يتزوجها • وظل صابرا لا يتعجل الأم أو الفتاة • فالفتاة لاتزال فى ميعة الصبا ، وهو يريد أن تتجلى الرغبة من جانبها هى أولا ، حتى لا يكون رضاؤها مفروضا عليها ، أو استجابة لواجب الوفاء بالجميل فالحب أنانى عنيد مخلوع العذار ، وجوهر صاف لا يمتزج بغيره •

وذهبت الفتاة مع أمها للسيرك أول ليلة ، تكاد تطير من الفرح ، فلا تعرف قريتنا من الملاهى شيئا كثيرا ، وجلست

مشدودة الأعصاب مشرئبة العنق جائعة النظرة تلتهم كل ما تراه وتضحك ملء شدقيها كالأطفال • ومر أمامها على نغم نفير وطبلة نقر ــ تعزف أدوارا قديمة ــ مخــاطر البهلوان ورقص الخيل وألاعيب الكلاب المدربة ، وهذا العراك الفكه بين حمار وصاحبه حتى أوقع الحمار صاحبه على الأرض ، وهو فصل مضحك لا تراه الا فى سيرك الأرياف •

ثم خرج فتى متوسط القامة ، ضخم كأنه كرة منتفخة ، يلبس طرطورا ، قد لطخ وجهه بمسحوق أبيض • هذا هو المهرج، يصفع ويركل ويصب عليه الماء وهو يضحك ويقفز ، ويقع ويقوم ، والناس ترثى لحاله وتضحك معا ودار الفتى على المتفرجين يعابث هذا الصبى ويخيف آخر ، حتى وقف أمامها ، واقترب وجهه من وجهها ، فرأت مابقى من شفتيه من سطر أحمر بدا لها فى لون الدم ، وأمسك بضفيرتها اليمنى وجذبها من وراء ظهرها ، وأنزلها على كتفها فوق صدرها ، ثم ثبتت نظرته على عينيها لحظة قصيرة وانصرف عنها الى غيرها •

ضاقت ذرعا بهذا العبث أول الأمر ، واحمر وجهها خجلا اذ لم تعتد أن تمتد يد غريبة لشعرها ــ ويحدث هذا أمام الناس أيضا !! ثم أحست فى جسدها رعشة باردة لم تفهم سببها • هذا الوجه الذى اختفى تحت طلائه ، لم يبق فيه أمامهــا الا عينان واسعتان ســوداوان عميقتان مضيئتان ، تختفيان تحت نقاب من

البله الكاذب شعلة متأججة بالبهجة والجذل وحب الحياة ، تفذت هذه النظرة الى قلبها فأحست أن حياتها كلها قد انقلبت فجأة من لون أبكم حائل لا سحر له ولا طعم ـ يعيش فيه جسدها وروحها معيشة الطفيليات العمى لا تدرى من أمرها ولا من أمر ما حولها شيئا ـ الى لون ناطق متوهج ذابت فيه تلك الطفيليات وأصبحت الحياة والبهجة ، والجسد والروح ، شيئا واحدا وكيانا متحدا لا ينفصل فيه عنصر عن آخر •

وفى اليوم التالى رأته عند الظهيرة يشق السوق ليشترى من البقال جبنا وزيتونا هو كل طعام غدائه • فوجدته فتى نحيلا شاحب الوجه ، يسير متمهلا قد كسر نظرته الى الأرض من الحياء، كل ما فيه ينطق بأن جذله يتضاعف لو وجد شريكا يقاسمه هذا الجذل • أما اذا ترك لنفسه ، فسيخبو الضوء من قلبه ، وسيهبط سلم الحياة والصحة درجة درجة ، حتى تذيبه الفاقة ويتلفه المرض •

لم يذهب للسيرك فى الليلة الثانية من ذهب اليه فى الليلة الأولى فلسنا من الأغنياء ، ولا يقدم السيرك الا برنامجا واحدا يتكرر كل ليلة، ولكن الفتاة السمراء ألحت على أمها حتى صحبتها للسيرك مرة ثانية • ووقف المهرج أمامها أيضا ، وأمسك بضفيرتها اليسرى وجذبها من وراء ظهرها ، وأنزلها على كتفها فوق صدرها • وقالت لها عيناه الضاحكتان « كيف أمسيت ، وكيف

أصبحت » ؟ لا يذكر من المتفرجين الا هـذا الوجه الصبوح الأسمر الذى ينم لونه عن الصحة ، صحة الجسم والروح معا . هل يبقى فى الحياة غم لمن يصبح ويمسى على رؤية هذا الوجه الجميل ؟ هى فتاة كالزهور البرية تحتاج الى الشمس والهواء ، لا أن تبقى حبيسة فى وعاء بين الجدران .

وفى الليلة الثالثة كانت الفتاة فى مقعدها ، وجلست الأم مقطبة الجبين ، لا تحب اسراف ابنتها فى انفاق المال وهو عزيز. وتغش نفسها بأن هذا هو سبب استيائها من نزق ابنتها ، على حين أن قلبها تصهره مخاوف وشكوك أخرى ، هى أشد خطرا من الاسراف ، ثم الويل لها من ألسنة الناس .

ودار المهرج دورته ووقف أمام الفتاة السمراء ، وأمسك هذه المرة بضفيرتيها معا ، وربط احداهما بالأخرى على صدرها فى عقدة جمعت التوأمين المفترقين ، وتمت بها دورة الكهرباء .. عقدة على ضعفها لا انفصام لها ..

وأخذت الفتاة تحدث نفسها وهى تأوى الى فراشـها .. ما أجمل صحبة مثل هذا الرفيق ! ترى معه بلاد القطر كله ، من شماله الى جنوبه، وتجوب طرقاته، وتسمع كل أصواته، لا يكربها ضيق بمكان حتى تشد الرحال الى مكان غيره . لو ظلت فى القرية لما بقى لها مفر من أن تستجيب لرغبة الجميع ، وتتزوج ابن عمها القصاب ، وهو رجل طيب أمير ، ولكن قلبها لا يميل اليه،

وهى لا تحب رائحة الدم واللحم والعظام • ولو لم تتزوجه لسلقتها القرية بألسنة حداد ، وحكموا عليها بأنها ناكرة للجميل ، ولم تنس القرية بعد كيف نشأت منذ صغرها فتاة شاذة ، لا تحب اللعب مع الفتيات ، بل مع الفتيان ، تتسلق معهم الأشجار ، وتجرى فى الغيطان وراء الضفادع والزنابير ••

ولما رحل السيرك رحلت الفتاة السمراء معه ، وكانت فضيحة كبيرة فى القرية ، لم يخفف من وقعها الا ما علمناه بعد ذلك من أن الفتى عقد عليها فى القرية المجاورة ، وما بلغنا من أنه سليل أسرة طيبة أخنى عليها الدهر ، وأنه يعاملها معاملة حسنة كريمة •

أما الأم فقد اختفت عن الأنظار وركبها المرض ، ولم تلبث أن فارقت هذه الحياة وهى تنعى حظها وتتحسر على ابنتها ، وتدعو لها بالسلامة •

ومرت أعوام ••

وذات صباح ذهب السائق كعادته بعربته الفرد الى المحطة ينتظر رزقه ، فاذا بالفتاة السمراء تهبط من القطار ومعها ولدان وبنت ، ووقفت مرتبكة تتلفت يمنة ويسرة •• ترك بقية الركاب وجرى اليها مسلما مرحبا ، فكادت تهم بذراعيها تطوق بهما رقبته وتقبله ثم ، بكت وهى تقول :

ـ ماتت أمى ، ومات زوجى ، وفى رقبتى هؤلاء الأيتام ، ولا أدرى ماذا أفعل ؟ ولا أين أذهب ؟

قال لها وهو مبتسم :

ـ البلد بلدك والدنيا بخير ، تعالى ، أنا أعرف الى أين أقودك •

ـ ابن عمى ؟ وهل يقبلنى ؟

ـ ستفسدين كل شيء اذا طلبت منه المغفرة • فان هذا سيفتح جراحه من جديد • ادخلى عليه كما يدخل المسافر العزيز يؤوب من رحلة طويلة ، وفى يده هدية •

ـ أى هدية ؟ وأنت ترى ثيابى الرثة ، وهذا القفص وهذه الربطة هى كل ما بقى لى من حطام الدنيا •

ـ وهل هناك هدية أغلى من ثلاثة أيتام ؟ ان نبينا نشأ يتيما، ولا أعرف كتابا سماويا مثل كتابنا تحدث عن الأيتام وحض على الرفق بهم ، وابن عمك رجل طيب أمير ، وأنت تعرفين •

وهز رأسه وخفتت بهجته حينما سمعها تجيبه :

ـ من أجل أيتامى خذنى اليه •

وعلمت القرية كلها أن المهرج مات فى بلد قفر قصى ، نزله السيرك مع وباء خبيث استشرى به ، حصد الأرواح وخرب البيوت ، وضاعت مناحتها على زوجها وسط مناحة عامة • ورجعت

هى القهقرى ، وحيدة لا رفيق لها ، لأن فتاها المتنقل من بلد الى بلد قد حط رحاله فى مقابر الغرباء .

ولما دقت الباب وخرج لها القصاب ، ورآها لم يزد عن أن يقول لها :

ــ أهلا وسهلا ومرحبا بك وبأولادك .

واستأذنها فى الخروج ليدعو لها بعض نساء الأسرة ولكنها قالت وهى تميل وجهها نحو أولادها :

ــ لم ازعاجهن ؟ وأنا لا أريد أن أرى الآن أحدا . تفعل خيرا لو عدت بالمأذون وحده ، ان شئت بقائى معك .

وأخيرا رضيت ، وكان الرضا من جانبها .

وقال بعض رجال القرية : كان ينبغى أن يطردها ، أو أن يشير عليها بأن تتزوج هذه المرة بهلوانا ! وقالت نساء القرية : مسكينة ! بختها مائل ، وهى بنت حلال . وأكبرن فى القصاب كرمه وتسامحه ، وان علمن أنه الحب .

وبدأت القرية تنساها ، ثم أخذت الاشاعات تهمس بأن الفتاة السمراء من طينة لا تنفع فيها التجارب ولا يأسرها الكرم والتسامح . لبست أحسن الثياب ، وأصاب أولادها من أطيب

طعام ومع ذلك ظلت ساهمة النظرة ، منطوية على نفسها ، لا تأبه لما يدور حولها .

وذهبت فى يوم مع صحبة من أترابها الى مطحن القـرية لتطحن قمحها ، وجلست فى ركن منعزل ، وتحمقت زميلاتها وهن يتدافعن ويتسابقن حول صبى الطحان ، لا تسـمع من مكانها الا الضحك ونقاشا كله عبث ومرح .

وفى طريق العودة الى الدار سمعت من رفيقاتها أن هذا الفتى غريب عن القرية ، وأنه يتيم ، وأن يومه ينقضى فى هذا المطحن ، فهو يعمل فيه من طلوع الشمس الى غروبها ، ثم يسوقه الاعياء الى حجرة صغيرة خلف المطحن تطل على المقبرة ، فينام فيها كالقتيل ، حتى يوقظه وقاد المطحن بأول صفارة مع الفجر .. فلم يبق له وقت يتوجع فيه أو يشكو ..

وفى المرة الثانية جلست فى مكانها القصى ، ولكنها مدت أذنها الى ضحكات أترابها وابتسمت قليلا ..

وجدت أعصابها شيئا من الهدوء فى المطحن ، بالرغم من ضجة الآلة وثرثرة النساء ، وهذه الذرات البيض تكسو الأهداب فتصبح كأهداب عدو الشمس ، وتنفذ من الأنف الى الحلق . تملأ الجو فيخيل لها انها ترى من وراء ستار من الموصلى (١)

---

(١) قماش رقيق منسوب الى مدينة « الموصل » بالعراق ، وهو نفسه المعروف الآن باسم « الموسلين » .

ـ وهكذا ستر الغيب للأنفس المتشوقة ـ منظرا من الحياة كيف تكون فى كوكب آخر •

ولعل سبب هدوئها هو سحر الدقيق الطازج ، تمد فيه اليد فتحس بحياة غنية كريمة ، فيها الدفء والندى معا ، وكأنها تصافح مخلوقا له براءة البكر • هشا قد خلع دروعه وان أوحى عريه فى الوقت ذاته بقوة ومجد تليد ، وللدقيق الطازج رائحة تجمع بين تنفس سنابل القمح فى الحقل تفوح بسر اللقاح ومخاض الطين ، وبين عطر الخبز الطازج الخارج لتوه من الفرن وهو من أرق العطور • هذه الرائحة ترد الفتاة للحياة ببهاء فجرها الأول قبل أن يطلع الاثم والدنس ، وتمثل العمل والكدح فى الهواء الطلق بعيدا عن الوشايات والاشاعات •

وفى المرة الثالثة ، حينما أرادت أن تحمل قفتها ، رأت يدين تمتدان لمساعدتها على وضعها فوق رأسها ، فرفعت وجهها فاذا بها أمام وجه ملطخ بالدقيق ، يلبس صاحبه طاقية على هيئة الطرطور صنعت من قماش أكياس الدقيق •

رقدت ليلتها ساهرة تتقلب على الجنبين ، واذا غفت قطعت نومها أحلام ملأى بالأشباح والأصوات ، كأن عالما آخر يتخطفها من دنياها •• وجاءها زوجها ، فأبت عليه معتذرة بأنها مريضة •

وكان لا بد لها أن تصدق ، فاستسلمت للفراش أياما غير قليلة ، فى آذانها طنين لا تعرف سببه ، ثم حين جاء موعد الطجن هبت من فراشها سليمة نشطة ، وان ظلت ذاهلة النظرة متلعثمة النطق .

قدمها صبى الطحان على أترابها ، وأخذت تنظر اليه وتفحصه . شاب نحيل مطبق، كأنما مر هو أيضا بشقى الطاحون. وجه طويل مجهد صابر وجبهة مرتفعة ، وشعر كله حلقات صغيرة مصفرة الأطراف ، وأذنان كبيرتان كأذنى القفة . هو صموت لا يتكلم الا نادرا وبألفاظ قليلة ، جسده متصلب الحركات ، يمشى زحفا ثم ينحنى فكأنما تهوى رأسه من كسر مفاجىء وسط ظهره ، ثم يلوى رقبته وهو منكفىء ثابت الجذع ، يتلفت للنسوة شمالا ويمينا بنصف وجهه ، فلا يبقى الا القليل حتى تنخلع رأسه من جسده ، وما هو كذلك على هذه المبالغة ، ولكنها هكذا رأته ، فانجذب قلبها اليه ، وملأه عطف شديد متدفق ، وتملكتها رغبة لا تقاوم فى أن تضمه بين ذراعيها لتلين حركته وينطلق لسانه ..

وزعمت الاشاعات بعد ذلك أنها تقابل صبى الطحان بالليل فى غفلة من زوجها ، وأنها لا تتركه الا اذا أكل ما تحمله له من طعام وفاكهة وحلوى ، وأن الأشباح التى أصبحت تجوس خلال

المقبرة تحت جنح الظلام وتتحدث فى همس ، ليست من عالم الجن كما يظن بعض السكارى العائدين لبيوتهم •

وزعمت ألسنة أخرى أن بعض نساء القرية يتطوعن لتيسير هذا اللقاء ، والتستر عليه ، ولا أستغرب ذلك على نساء قريتنا ، فهن فى حاجة الى سر يستعلين به على الرجال ، وتستهويهن المخاطرة ، وهذه الحيرة اللذيذة بين لا ونعم •

ولأن هذه الفتاة قد وهبها الله سحرا يجعلها محببة للقلوب مهما فعلت ، وكما تختار الأسرة ولدا من أولادها تكيل عليه كل حنانها وتدليلها ، فكذلك اختارت قريتنا هذه الفتاة لتغفر لها كل ذنب • ليس هناك دليل واحد على أن علاقتها بصبى الطحان قد جاوزت حد اللقاء البرىء ، وحدب كحدب العجائز على القطط المشردة ، الى ما يأباه الدين والشرف •

ومع ذلك لا يصدق أحد أنهما يبقيان طاهرى الذيل اذا ضمهما الليل تحت جناحه وحجبهما عن العالم والناس • والله أعلم بما يجرى بينهما ، وماذا تقول له ويقول لها !

ولعل حيرة الحائرين تزداد لو رأوها وهى تأوى الى فراشها بعد أن يتعشى أولادها وينامون ، براقة العينين ذابلة الشفتين ، خاشعة متوسلة :

يارب ! أنت الذى خلقت القلب ، فأنت اذن من يهبــه ، والا كيف تبوء كل مقاومة بالاخفاق ؟ وأى شىء يجذبنى غير أمرك وقدرك ؟ ولكن لماذا حين تخلق الحب لا تزد الناس بصرا وفهما ؟ ولا تزيل ما على عيونهم من غشاوة وما فى نفوسهم من قسوة وجحود ؟ لماذا خلقت حبا يخيب الآمال ويذيق العذاب أرواحا كريمة ينبغى لها أن لا تتعذب ؟ كيف يكون ــ وهو نور وحنان ــ قوة محطمة مدمرة ؟ تمزجه أحيانا بالحيرة بين واجب وواجب ، وكلاهما أنت فارضه .. من أخون ؟ قلبى أم أولادى ؟ لا ، لن أخون هذا ولا أولئك فارحمنى واغفر لى واستر على ..

أما القصاب فقد بلغته هذه الاشاعات فسكت عنها ، وأبت كرامته أن يتجسس عليها ، ولما أصابه مرض خفيف تعلل به ونقل مكان نومه من جوار زوجه الى حجرة أخرى ، وبقى بها بعد شفائه .

ماذا يفعل ؟ هل يطردها ؟ انه يحبها . وحتى لو لم يحبها فأين تذهب بأطفالها ؟ أيتركهم مشردين بعد أن وجدوا الأمان تحت سقف بيته . هى زوجه وبنت عمه ، فكيف يسترها الناس اذا فضحها هو ؟

ولو أن الاشاعات ذكرت رجلا ميسور الحال يستطيع الانفاق عليها وعلى أولادها ، لسرحها باحسان . ولكن صبى الطحان لا يكاد يبلغ قوت يومه الا بشق النفس . لعلها نزوة عابرة لا تلبث

أن تزول ، وتستفيق الفتاة وترى من أى معدن هوَ . اذن فلتبق، كضيف عزيز ..

تركها لخالقها هو بها أعلم وأرحم ، فليقل النـاس عنه ما يقولون ، وليسـخروا به ما يشـاؤون ، يطلبون الرحمـة ولا يرحمون ، تبا لهم .

وأخذ القصاب يمضى لياليه فى الحان ، مع زمرة من أصدقاء له مخلصين ، لا يجرؤ أحد أن يفاتحه فى شأن هذه الاشاعات ، ولا يشك أحد أنه عالم بها . ويظل هو ـ والأنظار تتخاطفه ـ هادىء النفس ، مبتسم الثغر ، غافرا ، مؤجلا الحساب ليوم الحساب بين يدى المنتقم الجبار ، الرحيم الرحمن ..

٤ - القزم

قطع تأملاتى صوت عال استبد به السكر ، يرتفع قـرب المنصة :

ـ كوب من الجعة علىحسابى للجميع ! هذا يوم مفترج وفرصة قد لا تعوض •

أثار هذا الكرم المخمور ابتسامنا جميعا ، وظل الكثيرون منا سادرين فى أحاديثهم وشرابهم لا يأبهون لما سمعوا ولا يلتفتون نحو قائله ، فكلنا نعرفه ، وهذا شىء قد ألفناه منه مرة كل شهرين أو ثلاثة ، ونعرف أيضا كيف تبدأ الواقعة وكيف تنتهى دائما ، لم يمض وقت قليل حتى انقلبت الابتسامات الى مرح شامل ،

والتفت الجميع نحو النصـــب ليضحكوا من منظر رجل قصير القامة ، يكاد يكون قزما ، يلوح بيديه ويشد صاحب الحان من كمه ويتشبث ببعض الرواد المعترضين على اسرافه الراغبين عن انتهاز فرصة سكره واستغلال كرمه وهو يجذبهم نحو النصب جذبا عنيفا عنده هينا عندهم ، يحلف عليهم بأغلظ الأيمان أن يشربوا ، ثم يلتفت للحاضرين جميعا يهددهم أنهم لو عصوه فلن يروه معهم مرة أخرى •

ونفهم من هذا التهديد كم يحبنا هذا الرجل ، فعنده أن القطيعة بيننا هي من أكبر الدواهي عليه وعلينا معا ، أخذ بعض الواقفين حوله يلينون له قليلا ويربتون على كتفه : لا تغضب ، هدىء روعك ••• قد فهموا أنه يفسر التأبي والتمنع بأنهم يرونه لقصرقامته وحده طبعه طفلا لا يؤخذ مأخذ الجد ، ليس لهم كفؤا، وان عصيان أمره نوع من الحجر عليه ، وأنه يخشى أن تفصح نظراتهم بما يدور في خلدهم :

ـ يا أخي ! ليست هذه النقود نقودك حتى تبعثرها هكذا!

وحين يرى أن لينهم له لا يقودهم بعد للنصب يربد وجهه غضبا أو حياء ، أهذا جزاؤه وهو يفتح لهم كل ليلة مغاليق قلبه ، ويحدثهم عن أدق أسراره ويخلطهم بروحه •

زال غضبه سريعا ووقف حائرا قد ركبه يأس شديد وغم ،

فلم يقو أحد منا على تركه فى هذا العذاب الممض ورددناه من جديد الى المرح ونحن نشرب كوب الجعة على حسابه ، ولكنه لا يستجيب للمرح بسهولة ، ألم يكن الأولى بنا أن نذيقه السعادة صرفا دون أن نمزجها بالألم • لا يبقى للاكرام طعم أو معنى اذا جاء قسرا أو بعد الحاح والحاف • وانبرى أحد الخبثاء يوجه اليه سؤالا ينسيه كل همومه وتمزقه بين الهزيمة والانتصار يجيئه بعد اعياء :

ـ متى كان الصلح ؟ وكيف احتلت له ؟ وكم أخذت ؟

جاءه الفرج ، قد أتحنا له أن يتحدث ، ويفضى الينا بأسراره وهو حين يفعل ذلك تهدأ نفسه ويطيب خاطره •

هذا القزم يعد نفسه من أبناء قريتنا ، وما هو كذلك ، فهو ينحدر من أسرة لا تجرى فى عروقها دماء الفلاحين ، اذا ذكر لنا موطنها الأول تخيلنا قوما يعيشون فى البرارى ، يلبسون فرو الأغنام ، ويسيرون على أرجل مقوسة ، ويأكلون اللحم المقدد طول الشتاء ، قد أوصدت الثلوج أبواب منازلهم • كيف رضوا بترك الوطن والهجرة الى بلد غريب ونحن نفضل أن نموت ولا نبارح قريتنا ولو كان انتقالنا الى بلد قريب من بلاد الوطن •

وأقامت هذه الأسرة فى العاصمة واتصلت بحاشية السلطان ـ وهو من جنس دمائها ـ فأقطعها أرضا فسيحة فى زمامنا •

وبنت تلك الأسرة فى هذه الأرض منزلا كبيرا كان أثاثه وتحفه حديث أهل القرية ودهشتهم ، أوان عجيبة الشـــكل من المرمر والرخام ، ودروع وسيوف معقوصة معلقة على الجدران ، وسجاد كبير تغوص فيه الأقدام ومع ذلك يكاد يصر فى منديل، وجاء مع الأثاث غزال وببغاء وقرد « وكان فرحة لصبيان القرية » وقطة بيضاء مكورة بليدة يختلف لون احدى عينيها عن لون أختها ..

ولما علم أجدادنا أنها فوق ذلك صماء لم يعجبوا من هربها أمام الفأر ، أين هى من قططنا ، تدخل بيوتنا وتخرج ، لاتأبه بها ، ولا تأبه بنا ، ضامرة البطن مشدودة كالوتر ، متكبرة ماكرة ، ما بين رؤيتها للفأر وانقضاضها عليه الا ومضة البرق ..

تجىء الأسرة مع المحصول ثم اذا انتفخت جيوبها عادت الى العاصمة ..

وشاء ربك مالك الملك أن يخلف الآباء أبناء أضاعوا ما ورثوا وأخذت الأرض تتناقص أطرافها ويد الخراب تمتد الى المنزل واختفى الغزال والقط والببغاء والقرد ، ولم يبق لسلالة هذه الأسرة فى وقتنا هذا الا ثلاثة أفدنة وحجرتان فوق مدخل الدار لم تنهدم جدرانها وان كان لا يزال معلقا بها سيف صدىء ودرع علاه التراب .

ولما مات أمين مخزن السماد فى قريتنا « وهو دكان صغير من أملاك الجمعية الزراعية » وعلمنا أن حفيد هذه الأسرة قد بذل جهدا كبيرا ليفوز بهذا المنصب الهين ومرتبه الضئيل . أخذنا العجب وقلنا لعله رضى به لأنه سيعيش فيما تبقى من منزل الأسرة ويراقب أرضه وينتفع بخيراتها .

روى لنا سائق العربة الفرد يوم وصل صاحبنا بالقطار كيف نزل مرفوع الهامة منتفشا ، تحت ابطه عصـــا قصيرة ، يتلفت شمالا ويمينا ، يشير باصبعه للسائق ، كأنه قائد أصيب بالخرس وسط معمعة ــ وانما هو الخجل ! ــ وتقدم نحو العربة ثم وقف ينادى بكلمة « يا هانم » امرأة ضخمة بدينة يزجرها لتسرع قليلا فتلحق به ، هذه هى زوجه تخب فى ثياب غالية من الحرير . واحتلت مكانها بجانبه وهو منتصب القامة مرفوع الرأس ، كأنما جاءوا له ــ بدل العربة ــ بفرس أصيل فركبه .. هكذا يريد أن يدخل القرية .

ودهشنا حين رأيناه يعدل عن منزل الأسرة الخرب ويختار دارا حسنة جميلة فى أطراف القرية يدفع لها ايجارا يوازى مرتبه، ثم يأتى فى أثره أثاث لا بأس به ، يدل على سعة العيش ، ويأتى معه أيضا خادم أسود ،وهو ترف لا تعرفه قريتنا .

علمنا بعد ذلك حقيقة أمره ، كانت أسرته لم يبق فيها من

الرجال الا هو ، ويلتف بهذا القزم عدد قليل من النساء ، بعضهن أرامل ، وأغلبهن عوانس ، وكلهن مصابات بأمراض وعلل شتى ، يعشن جميعا فى فاقة متسترة فى منازل مختبئة فى أزقة العاصمة، ثم ترملت في الزمن الأخير احدى قريباته وخلف لها زوجها المرحوم ثروة غير يسيرة ، وأصبحت هى زعيمة الأسرة من حيث الثراء ، فكان من الطبيعى أن تنضم الزعيمة للزعيم ، ولكن صاحبنا القزم ظل مترددا زمنا طويلا ، لا يضيره هذا الفارق الهائل بين حجمه وحجمها « وكان هذا الفارق مثار سخرية أهل القرية وانكباب بعض الأفواه على بعض الآذان بسؤال خبيث » فهو أولا لا يؤمن بأنه قزم ، وحتى لو فرض جدلا أنه كذلك فان له هيبة تنسى الناس قياس قامته ، ولن يكربه هذا الفارق فان النساء يقبعن فى بيوتهن، وليس من عادتنا أن يخرج الرجل مع زوجه ، فاننا نأبى ونخجل خجلا مربكا أن نرى فى صحبة نسائنا .

انما سبب تردده أن هذه المرأة دميمة الخلقة ، بشعة الصورة . لها عينان وأنف وفم وأذنان كبقية خلق الله ، ولكنها ركبت أو بعثرت فى وجه عكر فج كالرغيف من العجين ، ناتىء الجبهة ، مهزوم الذقن ، يحتل الخد الأيسر ندبة سوداء كبيرة كالزيتونة ، ينبت منها فرعان أو ثلاثة من شعر صلب مقوس .. وأخيرا قال القزم ، بعد أن وضعت الزعيمة يدها على التركة ، أتزوجها قياما بواجبى كزعيم الأسرة فليس لها آحد غيرى .

ورفض القزم أن تقول عنه انها تزوجت من عاطل ، اذا طلع عليهما الصباح بقى فى الدار بملابسها كالنسوة • لا يخرج الى عمل ولا يعود من عمل ، فلا تعرف متى يخرج ومتى يدخل . لم يبق له الا أن يدخل المطبخ ويكشف الأوانى ويتشمم الطعام•• واذا فعل الرجل ذلك زال احترامه بتة من قلب زوجه ، فسعى صاحبنا حتى فاز بوظيفة أمين مخزن السماد فى قريتنا ، وبهذا لا يصبح عاطلا ، وسيعيش فى وسط أناس يعرفون قدره وأصله فتتم له كرامة وعمل وجاه •

وتملكنا شىء من الانزعاج كتمناه فى قلوبنا حين رأيناه يتردد على الحان ليلة بعد أخـرى ، هو أول القادمين وآخر المنصرفين • لا يجيئها كما نفعل نحن للقاء الأصـدقاء والسمر وتمضية السهرة ، بل يجيئها كالغزاة متعمدا لفت الأنظـار اليه واصطفاء بطانة تلوذ به ، مبعثرا نقوده فى الفارغ والملآن ••

من أين له هذا المال ؟ لم نلبث أن علمنا أنه يبتزه من زوجته، ووصلتنا روايات الجيران عن عراكهما وصياحهما •• ولم يكتف صاحبنا بهذا البذخ ، بل سمعنا بعد ذلك أن رحلاته لعاصمة الاقليم للتموين ــ كما يقول ــ من السماد انما هى زيارات لفتاة من بائعات الهوى خيل اليه أنها تحبه ، فأحبها ، اذا جاءها أغلقت الأبواب والنوافذ وأعلنت المعجبين بها أنها فى تلك الليلة وقف على

صاحبها ولو بذلوا لها من المال فوق ما يبذل هو ، أليس هذا دليل المحبة والاعزاز والاعتراف بقدره ومكانته ؟

ولما ألفنا منه مسلكه هذا نسينا انزعاجنا وأصبحنا لا نراه حتى يشملنا جو من اللهو والمباسطة والدعابة ، ماذا عسانا نفعل غير ذلك مع قزم يجمع فى وقت واحد بين المهابة والعربدة ؟ يريد منا أن نحترمه حين يتبسط معنا ، وأن نتبسط معه حين يزور عنا متعجرفا . تتلذذ من سماع قصصه عن زوجه ، كيف تغضب لاسرافه ، فيعالج غضبها بغضب أشد ارهابا لها ، فلا تقوى على احتمال رؤيته مغموما فتجود عليه بما يسأل ، يقسم لها أنه يطلب منها المال هذه المرة لسداد ديونه وأنه لن يعود لتبذيره أبدا ، وسيمضى كل لياليه فى الدار .

وجاء يوم نفد فيه صبرها ويئست من علاج زوجها ، لو ترك لها الأمر لأحسنت رعاية هذا المال وتدبيره وتوفيره ، فلا يعلم أحد ماذا يأتى به الدهر . وخال لها أن القزم لن يرعوى عن غيه مادام يجد فى جيوبها نقودا ، فلا حل اذن الا أن تفلس هى أولا، ورغم أنفها ، ولكن أين تنفق نقودها وليس فى قريتنا مصرف مالى ، وحتى لو كان بها مثل هذا المصرف فان نساءنا « ومن قبلهن رجالنا » لا يعرفن شيئا يسمى ايداع النقود فى المصارف .

وليس فى قريتنا أيضا متاجر لبيع الثياب الغالية أو العطور النادرة ، فهدتها فطنتها الى بعثرة النقود على جيرانها من المأزومين

والمساكين ورتبت لأسر فقيرة اعانة شهرية لا تنقطع ، وتكفلت برعاية بعض أيتام القرية ، من مأكل وملبس وتعليم ، لا تسمع عن أسرة فى ضنك من العيش قد زارها المرض بوجهه الكئيب حتى تهرول اليها محملة بالهدايا فاذا خرجت وجدت الأسرة مبلغا من المال مدسوسا تحت الوسادة ..

فذاع صيتها وعم خيرها القرية ، وأحبها الناس حبا جما ودعوا لها بالخير ، يضربون بها المثل فى النبل والكرم والعطف على الفقراء والمساكين . وصارت دارها مقصد المحتاجين .

وأصبح القزم لا يزور عاصمة الاقليم الا مرة واحدة أول الشهر ، ولكنه لم ينقطع عن التردد على الحان ، يباعد بين الكأس والكأس ، بالتنقل بين الموائد ، لا ليشرب على حسابنا ، بل ليحدثنا عن نكبته فى هذه الزوجة المتلافة التى خبط عقلها ، تبعثر نقودها على الغرباء ـــ وأكثر قصادها من النصابين ! ـــ وتبخل على زوجها ..

واذا سمعنا بالنهار روايات الجيران عن عراك جديد شديد بين القزم وزوجه علمنا أننا سنشرب ليلتنا كوبا من الجعة على حسابه .

٥ - زوج العرجاء

يتهمنى أصدقائى أننى جليس غير أنيس ، فأنا معهم اما مطرق كأننى أعمى أتنصت الحديث لا أشارك فيه الا لماما ، وأما اذا رفعت اليهم رأسى علقت منى بوجوههم وعيونهم نظرة فاحصة متطلعة ملحة يضيقون بها ضيقا شديدا ، فلا عجب أن كانت أكثر نظراتى حائرة تائهة موزعة ذات الشمال وذات اليمين .

ووقعت نظرتى عرضا على النافذة فلمحت من خلالها شبح العرجاء سائرة مجدة قد زمت شفتيها وقطبت حاجبيها ومال رأسها على صدرها قليلا ، ساقها القصير يضرب الأرض بعزم وغضب ، وما لبث باب الحان أن انشق على مصراعيه كأنما دفعته عاصفة هوجاء .

ودخلت العرجاء تبحث عن زوجها ولعلها رأته هي أيضا من خلال النافذة في أقصى ركن من الحان ، فهذا مكانه المختار ، الذي يحب أن يجلس عنده اذا جاء الينا ، وهو لا يجيء الا نادرا ، ولكن العرجاء لا تريد أن تبحث عن زوجها فحسب ، بل تريد أن تخطب وتعظنا وتنهرنا وهي تعلم أنها اذا وضعت يدها على زوجها وسحبته فمشي وراءها طيعا ذليلا منكسر النظرة سترى الحان كله يعمه جو من المرح والفكاهة فتضيع مواعظها ولا ينفع فينا زجرها — لذلك انصرفت عن البحث عن زوجها ، وأخذت تتريث عند كل مائدة ، تنظر الى الجالسين وتهز كفها في وجه رجل تعيب عليه شيبته الزرقاء ، وتلكم رجلا آخر لكمة خفيفة في صدره وتذكره باهماله لأمه المريضة العجوز ، وتكاد تلوى أذن شاب تعيره بكثرة ديونه وانفضاح أمره بين الناس . لم يغضب منها أحد واستخفوا بها لأنهم رأوا عيونها تضحك معهم أيضا ، كأنها ممثلة تقوم بدور يروق لها وأكثر ما يرضيها ويسرها أن تبرع في أدائه .

وصادفت صاحب الحان مقبلا الى النصب فهمت يدها تطبق على رقبته وأوشك ما يحمله من الأكواب أن يقع على الأرض . تقول له بلهجة فصيحة سليمة :

— أنت أصل الداء وسبب بلاء هذه القرية الطيبة ، أصبحت بفعلك مثار سخرية أهل المقاطعة كلها . ويح لك . ألا تستحي ؟ لقد كان الأجانب من قبل هم الذين يفتحون الحانات في ريفنا

فيفسدون عشيرتنا ويبتزون أموالهم بالخمر والربا ، ثم حمدنا الله أن تخلصنا منهم ومن شرورهم ونفوذهم فما بالك وأنت من بلدنا تحذو حذوهم فى ضرر أهلك ، ألا ينهاك دينك عن هذا ؟ أم ليس لك خلق أو حياء .. كوشون صالون أبو صير (١) «هكذا سمعنا لفظها وأدركنا أنها تسبه أيضا بلغة أجنبية لا نعرفها ونحن أناس على باب الله » فأجابها صاحب الحان :

ـ لا تكثرى ! اننى لا أجبر أحدا على المجىء هنا ، وعندى ما أقدمه للرواد من غير الخمر ، كالقهوة والشاى والطعام ان أرادوا ، انما هم يهربون منك ومن أمثالك ، لا يعجبكن العجب ، وليس وراءكن الا النكد ، واذا كنت تحسبين أننى أجمع من مهنتى هذه ثروة أحسد عليها فأنت تخطئين ، اننى لا أكاد أصيب من هذه القرية المباركة ، الا ما يقيم الأود ..

قالت له وهى توجه كلامها لنا جميعا :

ـ ما معنى هجركم لنسائكم ؟ يعيش الرجال معا فى ناحية والنساء معا فى ناحية أخرى ، وما أبشعها خطة لو تعلمون ، حتى الحيوان لا يفعل هذا ! .

قال لها أحد الجالسين وهو يبتسم بخبث :

(١) تحريفات لثلاث كلمات فرنسية الأولى Cochon ومعناها خنزير والثانية لكلمة Salaud بمعنى قذر ؛ والثالثة لكلمة Abruti ومعناها مخبول أو متوحش .

ـ اذن فثورتك ليست لأن الحان حلال علينا ، بل لأنه حرام عليكن ! فهل يزول غضبك اذا أفسحنا لك مكانا بيننا ؟

ـ يقطع لسانك ، اننى أشرف من أن أخالط أوشابا مثلك.

لم تتمالك نفسها من الضحك ، كأنما أذهلتها جرأتها على السب ، وافحام مهاجميها ، وتريثت برهة مكانها وقد زال غضبها وشملها جو الحان بأنسه وروائحه ودفئه ، وبدت عليها الحيرة ، ورأينا وجهها ينطق بأنها ضاقت ذرعا بوحدتها وحديثها مع النساء، وانما ودت لو أمضت سهرتها معنا نحن الرجال تتحدث عن أشياء غير العلل والأمراض وأثمان اللحم والخضار فيتاح لها أن تعرض علينا ما عندها من حكمة وعلم وكل ما هى قادرة عليه من عبث ومزاح برىء ، فانها تحب الضحك .

ومدت يدها فتناولت من احدى الموائد شيئا من نقل الخمر وأخذت تأكله ، ثم تذكرت سبب مجيئها فأسرعت الى زوجها ، وكان يكاد يختبىء تحت المائدة ـ وأمسكت به من يده وقد احمر وجهه خجلا ، وخرجت تعرج وتجره ونحن نضحك ملء أشداقنا .

اننى أعجب لهذه العرجاء ومصيرها، لا أعلم على وجه التحقيق سيرتها ، ولكنى سمعت أنها من بنات العاصمة ، نشأت فى أسرة معيلة رقيقة الحال ، وعاشت هى فى كنف قريب لها غنى تبناها

تخفيفا من فاقة أسرتها وأملا في أن يجد في قربها وحنانها ما ينسيه ألم الحرمان من احدى زينتي الحياة ، زينة البنين ، اختارها من بين اخوتها من أجل عاهتها التي أصيبت بها في طفولتها ، فرق لها قلبه وعطف عليها ، وأدخلها المدارس الراقية ونطق لسانها بلغتنا الفصحى نطقا سليما وتعلمت فوقه لغة أجنبية أتقنتها كتابة وقراءة، ومرنت على شغل الابرة والحياكة وترتيب أثاث البيت بذوق جميل ، فهي الآن على فقرها أنظف نساء القرية مسكنا وملبسا ، ثيابها الرخيصة تنسجم عليها وتستريح لها العين ، ليس لنا مرجع الاها اذا تعطلت عند قريتنا سيارة سياح من الأعاجم يكلموننا بلسان لا نفهمه ، وهي التي تترجم لنا أيضا ما يصلنا بالبريد أحيانا من أوراق ملونة مزوقة فنعلم أنها اعلانات بعض الشركات الأجنبية في العاصمة .

وكان المتوقع أن يوصي لها قريبها الغني بوصية أو يوقف عليها جل ماله . ولكنه أخذ يؤجل تنفيذ عزمه من يوم الى يوم ، يكره أن يفكر في موته أو يراه قريبا ، وكان الموت أسرع منه ، فهو لا يحب الاستخفاف به فقضى نحبه على حين غرة ، وطردها ورثته ، أقرباؤه الأبعدون ، وكان لا يراهم ولا يرونه ، فخرجت صفر اليدين ، وعادت الى أهلها وقد أصبحوا أكثر عيالا وأشد فاقة .

أما زوجها فشاب من عشيرتنا ، أبوه من صغار الموظفين ،

عاد الى قريتنا بعد تقاعده ، ولا أدرى أى جهد بذله هذا الرجل بالتقتير على نفسه وببيع بعض ما يملكه من حطام ، حتى استطاع أن يرسل ابنه للعاصمة لطلب العلم فى مدرسة الفنون والصنايع، وظل بعونه الى أن بلغ السنة الأخيرة وأوشك أن يتقدم للامتحان لينال الشهادة .

وكان الفتى يسكن بجوار أهل الفتاة . وتم اللقاء الأول بينهما بعد أيام قليلة من ارتدادها الى دار أسرتها ، ثم لم يمض أسبوع حتى عقد عليها وأرجأ زفافها اليه حتى ينـال شهادته ويوظف .

وقال بعض حكماء قريتنا انها تزوجته لأنها كانت فى تلك الفترة من حياتها وبعد الضربة القاصمة التى أصابتها ، يائسة ، مبلبلة الذهن ، لا تأمل أن يرضى بعاهتها ـ بعد فقرها ـ شاب من الوسط الذى طردت منه ولأنها كانت وهى المثقفة المتمدينة المدللة ، تضيق ذرعا باكتظاظ منزل أسرتها القذر بعيال تغوط وتبول وتبكى وتصرخ طول الليل والنهار . فطلبت النجاة منه على أية صورة ، واستجابة لأول طلب ، ولو بدأت من أسفل السلم مع زوج فى منصب صغير اذا كان ينتظر له الرقى فى مستقبل الأيام ، فكان زواجها فى نظرهم نوعا من المخاطرة ان لم يكن من الانتحار .

وقالوا عن الشاب انه لم يكن يطمع فى أن يجد له زوجه

مثلها ، متعلمة ، مهذبة ، وأن الفقيرة بعد غنى هى نعم العروس اذا حسنت أخلاقها ، فاذا ساءت كانت نقمة والعياذ بالله ، وقالوا انه حين رآها تفوقه علما وثقافة وفهما ظن أنه فاز بصيد ثمين ، وماذا يضره ، اذا تزوجها ثم لم يفلح الزواج ؟ أليس أمامه باب الطلاق فسيح ، هكذا قالوا عنه فهو فى نظرهم نهاز ومقامر أريب .

وقال بعض نساء القرية ان الفتى سحرها وزين لها مستقبله وخلب لبها بوعود كثيرة لم تلبث الا أن تبددت هباء ، والنساء هن ضحايا الرجال أبد الدهر . وقال شانئاتها : ثم ماذا ؟ عرجاء تزوجت من عاطل ، قد وقع النعل على الحافر .

وانى لا أقول عن العرجاء وزوجها ما قالوه ، معاذ الله ، هما نعم الزوجين المتحابين ، ليست السعادة فى المال أو الجاه ، بل فى توافق روحين .

خبرت العرجاء وزوجها ، أدخل دارهما أحيانا فأعجب بهدوئه وتحشمه ، وأصاحب زوجها أيام عطلتى فأجد فى صحبته أكبر لذة ، وأستطيع أن أشهد أن زواجها ــ من قبل عشرين سنة ــ لم يكن انتحارا أو قائما على الكذب والخداع والا لما دام الى اليوم، وانما هو الحب ، قد يقال اننى أنقل من بعض القصص الغرامية وماذا أفعل اذا كانت القلوب قد فقدت اليوم ايمانها بالحب وبهائه ؟ والحياة مع ذلك لا تخلو منه وان أصبح الحب لا يولد

ولا يشق طريقه الا وسط الشكوك والريب ، ولكن الذى كان بينهما هو هذا ! سأرويه كما حدث لأننى أكره الخداع .

كان صاحبنا حينئذ فتى فى ميعة الصبا ، له روح صافية بريئة ، وجسم أشرب ماء الحياة ، تحسبه من مطاط متين النسج، لا تحطمه الصدمات ، كأنما خلق له القفز والجرى ، كل حركة منه لفتة رشيقة جديرة بأن يخلدها مثال عبقرى ، له يد غير مترفة اذا صافحتها أحسست بصدقه واخلاصه فهى بعض قلبه ، ووجه حر أشم العرنين (١) زاده الاسمرار بهاء ، هو فى أية ساعة رأيته تجده كأنه قادم لتوه من نزهة طويلة فى الحقول ، غسلته الشمس ورقصه النسيم ، كما تفعل الأم بصبيها ، تحميه وتدلله ، له نظرة تطالعك لا تنكسر ولا تراوغ . تنبعث من عينين تموجان بالمرح والبشر ، لا ترهبه الحياة فهى أمامه متعة صافية ، لا يحول دونها عائق ، ما ظل فى الطريق الحلال .

أما هى فكانت بالليل تنام فى فراش من حرير تهدهدها يد العز فيمضى نوما هنيئا تحدوه أحلام جميلة ، وبالنهار تتفتح فتنتها كالزهرة يندبها التحبب اليها ويؤرجها مقدرتها الموهوبة لها من عند الله سبحانه على اسعاد الغير ، اذا لم تلبث ابتسامتها على

---

(١) عرنين الأنف تحت مجتمع الحاجبين ، وهو اول الأنف حيث يكون فيه الشمم .

شفتيها الا قليلا فانها تمكث فى القلوب كثيرا • حتى كادت تنسى عاهتها •

ثم اذا بها تستيقظ فجأة ، تسقط من شــاهق على ساقها الأعرج ، وتتحول من الاعزاز بين السعداء الى الضياع وسط المهزومين ، ومن الغنى العريض الى الفقر المدقع ، وهى عاجزة عن السعى ، يحدث لها هذا دون ذنب جنته ، كان خيرا لها ألف مرة لو تركت فى فقرها الأول فهى لم تطلب الغنى حتى يقال عن هبوطها انه عقاب الطمع ، بل الغنى هو الذى حط عليها وخطفها ــ كما تفعل الحدأة بصغار الفراريج ــ حتى اذا علا بها تخلى عنها وتركها تهوى الى الأرض •

وأدركت العرجاء أن الحياة أم لها ثديان أحدهما يجود بالعسل واللبن ، والآخر ينضح بالمر والعلقم ، وأن من طبع هذه الأم ــ لحكمة لا نعلمها ــ أن تنقل بعض أبنائها من ثدى الى ثدى • ولو مرت تجربة العرجاء برجال أشــداء عركوا الحياة واستخفوا بالجهاد لزلزلوا لها زلزالا شديدا ، فمنهم من يتحطم ، ومنهم من يذوى على مهل ، وتمضى محنتهم مثلا ترويه الألسن وتتناقله •

ولكنها لم تتحطم ، وانى والله بها لفخور ، بل كانت كالعطر المبذول يصفى على النار فيستخلص جوهره الكريم ، أصبحت تدرك نشوة الكرامة ومعنى رفع الرأس ، وتفهم أن عاهات البدن

ـ مهما أوغلت ـ هفوات أحداث عابثة لا تخدش الروح ، وأن الحياة التى كانت حولها جميلة ، نائمة ، هى الآن حولها جميلة متوثبة .

ووقعت نظرتها على جارها الشاب فشعرت بروحه الصافية وجسمه السليم ، ووقعت نظرته على جارته فأحس معدنها المصقول وأنها ان شاءها فهى عصا خيزرانة تتثنى ، وان شاءها فهى عكاز من حديد . ولكن لم اللف والدوران ؟ لماذا لا أقول فى كلمتين انه أحبها وانها أحبته ، وآمن الاثنان أنهما اذا تقاسما الحياة كملت لهما ، تعلم أنه ريفى فقير ، ويدرك هو أن قسمتها فى الحياة عرجاء .

ورضيا بالحياة كما هى . ولكن هل تظن أن الحياة رضيت بهما كما هما ؟ ان لها فى بعض الأحيان نزوات لا نفهمها وعناد يغيظ اذ لا ينفع فيه شىء يسمى منطق البشر وهو كل ما لدينا ..

خرج الشاب ذات صباح من داره ليذهب الى المدرسة فاذا دروب العاصمة تموج بحشد غفير من المتظاهرين ، هم أخلاط وأشتات جمعهم الهتاف بسقوط الحكومة . لا أذكر الحادثة التى أثارتهم ، فما أكثر ما سمعنا من أنباء هذه المظاهرات حتى ألفناها لتشابهها وعقمها وأصبحنا لا نأبه بها . أعتقد أن الحادثة ترجع الى تناحر حزبى على مقاعد الحكم ، ونزاع بين زعيمين هو فى

أغلب الأمر تنافر بين مزاجين لا يرقى الى مرتبة الخلاف بين رأيين واستطاع الحزب المعارض أن يلبس أطماعه فى الحكم ثوب الدفاع عن حقوق الشعب وحريته ، وانساق بعض الناس وراءه، بعضهم تطوعا ، فما أسرع أهلنا الى الحماس والهياج ، وبعضهم طمعا فى تحقيق مصالحهم الذاتية اذا تغيرت الحكومة ، وشعبا ـ كبقية الشعوب ـ لا يخلو من المنافقين ، ولعل كثرة المتظاهرين لا يريدون نصرة الحزب المعارض بقدر ما يريدون الجهر بضيقهم من متاعب العيش لا يستطيعون القاء مسـئوليتها الا على رأس الحكومة ، أيا كانت .

وكان صاحبنا لا يحب السياسة ولا يناصر حزبا على حزب ، ويكره الخصام والجدال . هدفه الأوحد أن ينهى دراسته .

وأخذ يتطلع الى وجوه المتظاهرين بشىء من الرثاء والسخرية والفكاهة ، هذا العامل الفقير الممزق الجلباب انما يلهو ويعبث حين يقلد قائد المظاهرة ويردد وراءه هتافاته المسجوعة ، وهذا الأفندى يتصبب عرقا وسط الزحام ، لم وفيم يزج نفسه فى هذا المأزق ؟

وانصرف عن المظاهرة يقول :

ـ هى حكومة تريد أن تتشبث بمقاعد الحكم ما أمكنها ، وجماعة من العاطلين المتهوسين لا ينتبهون إلى أنهم ألعوبة فى

يد ساسة من المكرة الدهاة • انه ليس مثلهم غرا تنطلى عليه حماسة قائد المظاهرة ، ان قلبه يحدثه بأن الرجل مأجور ، وهذا الخطيب المفوه له صورة الذئاب ، يهدر صوته كالرعد دفاعا عن الوطن والشعب المسكين ، انما هو جاسوس يتقاضى من العدو مرتبا كبيرا كل شهر •

ووصل الى المدرسة فراعه أنها محاطة بعدد كبير من الجند على رءوسهم خوذ كريهة اللون ، يحمل بعضهم البنادق ، وبعضهم العصى الغلاظ •

ورأى زملاءه الطلبة قد لاذوا بسطح المدرسة اتخذوه حصنا يقذفون منه على الجنود حطام أثاث مدرستهم ـ يا للحماقة ! ـ يتلفون أموالهم بأيديهم !

زجره جندى وأغلظ له ، فابتعد عنه ، ووقف بجانب الباب حائرا يقول لنفسه « أين أذهب ؟ هذا يوم آخر من أيام الدراسة يضيع هباء » •

وهم أن ينصرف ، فاذا بحجر يصيب رأس قائد الجند واذا بهم يندفعون جميعا نحو الباب فيجد نفسه محمولا وسط التيار يصعد معهم بسلم المدرسة ولكنه تخلف عنهم فى الطابق الأول ومضوا هم الى السطح •

وسار فى الدهليز متجها الى فصله ليرى من بقى فيه من

زملائه ومر أمام المرحاض فرأى رفيقا له مختبئا وراء بابه هو صبى نحيل ضعيف مسالم يكره العنف والضجة ، فقال له « لماذا تختبىء هنا ؟ الموقعة دائرة على السطح فتعال معى الى الفصل. هو الذى جره وأخرجه والصبى يقول له « تحسن صنعا أنت لو اختبأت مثلى فى المرحاض • »

لم يكد يسير بزميله خطوتين حتى أطبقت عليهما زمرة من الجند ورأى واحدا منهم يرفع عصاه الغليظة ليهوى بها • لم ينس الى الآن وجه هذا الجندى ينطق بالقسوة البالغة والكره الشديد ، هو وحش كاسر يلذ له أن يلغ فى الدم ، وقبل أن يقول له الشاب « تريث ! لا شأن لنا بما حدث ! انتظر ! اسألنا سؤالا واحدا نجبك بما يريحك ! » هوت العصا الغليظة بقـوة على رأس زميله المسكين ، والضعيف هو الذى يتلقى الضربات حتى غير المقصودة منها ! فوقع على الأرض وتفجرت الدمـاء من جـروحه •

انكفأ عليه لحظة ثم قام هائجا وأمسك بتلابيب الجنـدى ولكن بقية الجند ضربوه بكعوب بنادقهم وجروه الى سـيارة السجن وقذفوه فيها مع نفر من زملائه •

وفى اليوم التالى علم أن رفيقه المسكين لم يستفق من ضربته حتى مات بعد ساعات قليلة ، وان الحكومة أمرت بدفن جثمانه سرا خوفا من أن تقام له جنازة تنقلب مظاهرة أخرى •

اذا ذكر الى اليوم وجه الجندى فانه نسى السجن وليلته فيه نسيانا تاما ، اذ كان ذهنه مشغولا بمسألة تهز كيانه هـزا عنيفا . كان بالأمس لا شأن له بالمظاهرة وأسبابها ولكنه اليوم يدرك معنى الظلم بل يعتقد ـ وهنا الخطر ـ أن هناك من المظالم ما لا يمكن دفعه الا بمثل قسوتها . انه لا يريد أن يناصر حزبا ، أو يدافع عن رأى ولكن لا مفر له من أن يثور فى وجه الظـلم أيا كان ، يا للهول والخسة والجبن ! يقتل صبى غرير بـلا جريرة على يد واحد من مواطنيه لماذا ؟ من قال بهذا ؟ وكيف يمكن الاقتصاص من هذا الجندى وهو آخر الأمر حلقة فى سلسلة طويلة لا يعلم أولها من آخرها .

ان فعلة الجندى دليل على أن هناك خللا فى جهاز الحكومة بل يدل ـ يا للنكبة الكبرى ـ على أن هناك خللا فى كيـان الأمة كلها .. وما كان هذا الجندى يقدم على فعلته لولا احساسه بأن نفوس رؤسائه أشد استهانة منه بكرامة الشعب ، وأنه عبر بضربته عن خبايا نفوسهم .

وأنف صاحبنا أن يعيش بلا كرامة ، مهدور الانسانية حقيرا ذليلا .. ولما عاد للدراسة كان أكثر الطلبة مشاغبة وهياجا ، لم يترك مظاهرة واحدة دون أن يسير فى مقدمتها يحطم الترام ومصابيح الطرق بلذة كبيرة . وفصلته المدرسـة ، وحرمت عليه الحكومة دخول كافة معاهد العلم فى القطر كله .

وكتب له أبوه : « يا ابنى ! مادمت لم تفلح فى المدارس فعد الى بلدك تفتح لك دكانا ترتزق منه فأنت على قولك تعلمت أصول النجارة والبرادة والسباكة » •

وسار بهذا الكتاب متهلل الوجه الى صاحبته وقال لها :

ـ ليس لنا عيش فى العاصمة ، فسيظل البوليس يتتبعنى ، ويلقينى فى السجن كلما طرأت أزمة ، فلا يشفينى الا البعد عن هذه المتاعب وأن أعيش فى الريف حرا ، ناجيا من الظلم البين والاستبداد • فهل تقوين على سكنى الريف معى ؟

فقــالت له :

ـ أنا معك أينما كنت • فى السراء والضراء •

ولم تفصح له عما قاله قلبها أيضا :

ـ وسأعينك بشــغل يدى •

وفتح الشاب بمساعدة أبيه دكانا للنجارة لأنها أنظف من السباكة وأخف مشقة من البرادة ، وبدأت العرجاء تخيط بذوق جميل لقاء أجر قليل ثياب بعض الموسرات من نساء القـــرية ، وأقاما لهما دارا متواضعة هيئة وأثاثا ، ولكن يكفيها أن الحب يرفرف عليها ، وكان الظن أن الدنيا رضيت بهما على صـــورتهما الجـديدة ، ولكن لا •

ان ثورة الشباب على الظلم انقلبت عشقا مولها بالحــرية

وكرها عميقا لكل قيد ، مهما كان هذا القيد • وأنف الشاب أن يحتفظ بزى أهل المدن وأبى أن يرتدى زى الفلاحين ، لأن الرأى العام فى بلدنا سيرى ــ يا للاسف والعجب • أن فى ارتدائه لزى قومه حطة وتدهورا ، فاتخذ له زيا وسطا ، بلا طربوش أو قميص أو ربطة عنق ، بل اكتفى بسروال متسع عليه صدرية من الصوف من شـــغل زوجه •

وكان دكانه فى أطراف القرية ، تمر أمامه ترعة صغيرة عليها جسر من جذوع الشجر يصلح لمرور الناس والدواب ، لاالعربات والسيارات ، ووراء هذا الجسر حقول ممتدة الى نهاية النظـر تقوم فيها هنا وهناك أشجار ريفنا ، وهى أشجار وارفة الظلال، عليها وداعة الشيخوخة وازورارها من زحمة الحياة ومتاعبهـا ومشاغلها ، تتدلى أغصانها فوق ساقية ان كانت على جسر الترعة وأما اذا قامت وسط الحقل فما أبرد ظلالها عند الظهيرة للفـلاح المتعب وجاموسه النحيل •• وهذه الترعة العكرة التى تمر أمام دكانه تبدو لها من بعيد أخت لها براقة كالفضة ٠

استحوذ سلام الحقول على لب الفتى فأخذ يهمل دكانه ويعبر الجسر الى أرض الله الواسعة ، لا تصل الى آذانه ضـجة أو ضوضاء يسير بجانب المصارف يتأمل الزرع ويقف أمـام الحيوان كأنه يراه أول مـرة •

هذه الجاموسة ــ جلدها كذوب الطين ــ لاتزال رغم طول

عشرتها لنا تحلم بموطنها الأول ـ منابع نهرنا العظيم ، وهـذه البقرة فى أحسن اهاب عليها هالة من قداسة وان نسى النـاس عبادتها ، وهذا الجمل ، سيد متكبر هبط علينا من كوكب آخر ، فلا شبه بينه وبين بقية حيوان هذه الدنيا ـ اذا استناخه (١) صاحبه أرغى وأزبد ، ثم انهد طبقة بعد طبقة ، وظلت رقبته تمتد بعجرفة من وسط خرائبه ، أما الماعز المتوثبة النزقة فاغلب الأمر أنه يسمع مأمأتها قبل أن يرى قرونها الخروبية •

وكان اذا قابل فى تجواله فلاحا عند ساقية جلس اليه وأكل من طعامه ، ولربما أصلح له ساقيته متطوعا ، بلا أجر ، أو إن قبل مكافأة أخذها جبنا ومشا وبتاوا (٢) •• وبعد قليل شاهده الناس يخرج الى الحقول وفى يده غابة وشص (٣) ، ويجلس الى الترع والمصارف يصطاد السمك ، ثم رأوه بعد ذلك يخرج ببندقية ولا تدرى من أين جاءته ؟ ـ ويظل يراقب الطيور ويتشممها ، وحينئذ هدأت روحه وسكنت ثورتها •

وأفلس دكان النجارة ، وكان عذره أن العمل قليل ، ونسى أننا كنا نطلبه فلا نجده ، وأن العمل الذى نكلفه به ونظن أنه ينقضى فى يوم يظل فى دكانه أسابيع وشهورا ، ولست أنـكر

(١) الخت الجمل فاستناخ اى ابركته فبرك •

(٢) خبز رقيق مستدير مقدد يصـــنع فى الصعيد والشرقية من القمح والحلباء •

(٣) حديدة معقوفة يصاد بها السمك (سنارة) •

أننا ما طلبناه مرة لصنع خشبة لميت الا وجدناه فى دكانه ولا أدرى كيف ؟ ويعدها الناس من كرامات الميت ، وكم للموتى عندنا من كـــرامات .

وقيل له « اذا لم تفلح فى النجارة فعليك بالسباكة ، فان أهل القرية فى حاجة دائمة لمن يصلح لهم مواقد البترول وكذلك تجار المسلى فى حاجة لمن يلحم صفائحهم ، ولكن مآل دكان السباك لم يكن خيرا من مآل النجار ، وأفلس الشاب مرة ثانية . ثم استمر زمنا يعمل كبراد ، فجاءه أصحاب آلات الحــرث والرى ـــ وكان لايطالبهم أن يأتوا الى دكانه بما يريدون اصلاحه بل كان يذهب هو اليهم ـــ هى ذريعة يتصيدها ليقضى نهـــاره فى الحقول وقد تمتد جولته الى قرية أخرى ويغيب فيها يوما أو يومين ودكانه مغلق ، والناس تبحث عنه فلا عجب أن أفلس للمـــرة الثالثة .

وكانت العرجاء هى التى تصرف على البيت من مكسبها ، وكان الزمن قد قسى عليها . فالعلة التى أصابتها فى طفـــولتها وسببت لها عاهتها ، داء يكمن كالسم الخبيث فى الجهاز العصبى ويتلفه شيئا فشيئا وأخذنا نلحظ عليها ـــ فى العهد الذى أتحدث عنه ـــ هزات عجيبة تلوى يدها اذا تحدثت ، وتقلب مشيتها العرجاء الى نوع من الرقص المتراوح شمالا ويمينا . ولا أدرى هل انحلت أم يبست بعض عضلات وجهها اذ أصبحنا حين نراها

فى أوقات غضبها لا نعرف هل هى ضاحكة أم باكية ، واستقل كل حاجب عن أخيه فى حركته ، وكأنما اتسع جفناها عن حدقتيها أو ضاقت عنهما عيناها فأصبحت ابرأ نظراتها نظرة شاخصة محملقة ينقبض لها صدر محدثها . وغلب عليهما نوع من السذاجة ، لا تسلكها بين المرضى لأنها لا تبلغ درجة البلاهة ولكن جعلت أهل القرية يقولون عنها ان فيها شيئا لله . وزاد عطفهم عليها ومحبتهم لها ، فلم ينقطع رزقها من عمل يديها .

ولا تحسبن أن أهل القرية تنكروا لهذا الشاب ونعوا عليه حماقته وأفن رأيه وسوء تدبيره ، فان له ابتسامة تميت النقد من قبل أن تنطق به الشفتان ، بل من قبل أن ينخر كالسوس فى القلب، وادركوا أخيرا — وهم لايعلمون كيف حطمت حادثةصديقه المسكين روحه — أن لا علاج له ، وأنه طفل فى ثياب رجل ، لا يزال يحب الجرى والقفز — ومن منا لا يحب الأطفال ؟

وفتح له أهل القرية جميعا مع قلوبهم بيوتهم اكراما له ولزوجته العرجاء ، يدخلها حتى فى غيبة رجالها ، فما رأى شيئا تالفا الا تطوع لاصلاحه ، من تقويم السقف وايقافه عند حده، أو اسكات الصنبور الثرثار، الى تأديب الرتاج (١) ليسحب لسانه الطويل .. وهكذا .

قلما ندفع له مالا فهو لا يسألنا شيئا ، ولأن العرف جرى أن

---

(١) المزلاج أو « الترباس » .

العاطل لا أجر له ، ولكنه كان أحيانا يشاركنا طعامنا وشرابنا ولهونا ، ويحب فى بعض الليالى أن يجلس الينا فى الحـــان يروى لنا آخر انتصاراته ـ والله أعلم بالمبالغة ـ وقلما برأ منها صياد ـ فى صيد البر والبحر .

ولا أنسى الى اليوم حيرة العمدة حينما وصلنا من العاصمة استمارة طويلة عريضة وأريد منه أن يبين فيها مهن أهل القـرية صنفا صنفا وعدد العاطلين وسبب عطلهم ، وهل هو موسمى ، أو على مدار السنة ، والعمدة لا يؤمن بفائدة هذه الاستمارات ولكنه مكلف بأن يسد الخانة .. فحك رأسه ودارت نظرته حـــول جلســائه ، وتردد برهة ، ثم سأل الله المغفرة وكتب اسم زوج العرجاء فى خانة العاطلين وذكر أمامه أنه عاطل على مدار السنة، ثم أبى أن يضيف عليه اسما آخر ، لأنه أنف أن يصف بالمتعطلين بعض أهل بلده وكلهم يسعى ويكد فى طلب الرزق ، فليس من العدل وان لم يصيبوا من دنياهم ســوى الكفاف أو أقل من الكفاف ـ ان يسجل فى أوراق رسمية أنهم من العاطلين ، والذنب ليس ذنبهم .

ولو كان للحكومة نفس تحس وتشعر لأضافت الى الاستمارة خانة جديدة تسأل فيها عن العاطل هل هو سعيد أم غير سعيد فانها لو فعلت لكتب فيها العمدة باتفاقنا جميعا أمام اسم زوج العرجاء :

ـ سعيد جــدا .

٦ - الفتى الفنان

مضى نصف الليل أو كاد ، وانصرف عن الحان غير المحنكين على الشراب . بعد أن أصابوا ما أتوا من أجله ، كأن قدومهم للحان أداء لوظيفة .. وخلص لها زوارها العتاق ، عشاق الليل ، هم بطانته ومريدوه ، يؤذيهم النهار بضوئه الساطع ورؤيتهم للمخلوقات من حي وجماد في صورة فجة ، أفصحت قسماتها فعريت وتبدد سحرها ، كأنها جميعا من مرتزقة الجند ، يساقون الى معركة لا يعرفون مكانهم فيها . شجاعتهم غير منبعثة من القلب ، بل هي من أثر التدافع وانعكاس وميض السلاح على الوجوه ، فلا عجب ان خالطها الألم واقترنت باعياء يحاولون ستره فلا يخفى ، أما أهل الليل فهم الذين لا يرفعون أصواتهم ، حديثهم نجوى ، يسمعون همس المخلوقات ــ ما غفل منها وما لم يغفل

ـ بأسرارها وجمالها وأوهامها وأوجاعها وتسبيحها لبارىء الكون.
الليل عندهم رقة وصفاء وسلام ، بين كل نجم وقلوبهم شعاع متصـــل .

هبطت الضجة ، وفرغ كل جالس لنفسه وهو راض عنها. فقد استرخت وكفت عن النغر ، وخال أنه أرقد طفلا ، وأن الحان مهده ، وان سكره من فعل يد رقيقة تهز له المهد وتهدهده لينسى .. وبدأ صاحب الحان يجود علينا وهو سعيد بأعز ما عنـــده من شراب يضن به على غيرنا .

ولكن اعتكاف الروح لم يدم طويلا فهى ظامئة آبدا الى جديد تريد أن تأخذ بنهم لتعطى باسراف ، وليست السعادة فى الثروة مهما بلغت اذا ركدت ، بل فى تجددها وان قلت . لذلك انبعثت فينا نشوة حلوة وملأنا البشر جميعا حينما رأينا الفتى الفنان يدخل علينا كأنه هب النسيم العليل ، وفى يده الكمان .

وتفرقت حلقات الموائد وتجمعت حوله وأصبح هو ســـيد المكان وواسطة العقد فالصدارة حق الفنان أينما حل .

هذا الفتى أبوه أغنى تجار الحبوب فى قريتنا ، ليس له ولد غيره ، يدخل مخازنه ، ويسافر للأسواق وهـــو مطمئن النفس صادق النظرة والحساب لعلمه أن وراءه ابنه يحل محله ويقيم

مجده اذا أقعده المرض أو خطفه الموت • ودفع ابنه للمدارس حتى نال الشهادة الثانوية جذبه لمتجـــره وأمره أن يلزمه كظله وأن يصحبه فى أسفاره آملا بذلك أن يشتد عود الصبى ، ويألف المشقة والصبر ، ويفهم أسرار التجارة ، فهى عنده لا تستقى من الكتب ، بل تكتسب بالممارسة والمران •

ولكن أمر الفتى عجيب ، انه يضيق ذرعا بمهنة أبيه ، ويكربه أن يلح على الفلاح لينقص له من ثمن قمحه مليما أو مليمين ، ويكره المال ورأس المال والجمع والطرح ، والتاجر عنده ــ وكثير من الأبناء يسبون آباءهم فى قلوبهم وهم لا يشعرون ــ اما رجل متزمت منطو على نفسه مكابر يظن أنه يقرأ الغيب ، واما مقاتل لا يمسكه قانون أو رحمة •

لم يفهم شيئا من أسرار التجارة ، ولم يفلح عمل واحد تولاه مستقلا عن أبيه ، فماله هو ولهذا كله ، ان روحه تهتز بأصوات خفية تتسرب اليه من كل مكان وجهة ، اذا جلس فى الدكان تلقفت أذنه صوت مطرقة الحداد ووقع حوافر الجواد فى المشى والعدو، صرير الباب له فى قلبه صدى ومعنى • فاذا خرج للأســواق فى صحبة أبيه حار لا يدرى أى الأصوات أولى بانتباهه • حفيف الشجر ، وخرير الماء وعويل الريح ، وخشخشة أعواد الــذرة اذا ضربها الهواء ، حتى الطير وهو يحوم فى السماء يصـبح عنده نغما ناطقا ، وفوق كل هذا أصوات تحدثه بها نفسه ، وكأنها

خزانة ملأى بالماس والبروق ، باللؤلؤ وقطر الندى ، بالياقوت وجرح الحب ، بالزمرد واطمئنان النبيل الأصيل ، كلها تريد أن تنطق على شفتيه ، وأن ترى النور من خلال عينيه .

سجل فى قرارة قلبه جميع نداءات الباعة ، وأغانينا الشعبية ومواويلنا الحمر ، تلتقط أذنه وسط الضجة هتاف الفلاح لفلاح آخر يفصلهما نهرنا العريض فيهتز له قلبه ، يكفيه أن يسمع مرة واحدة دورا أو أغنية حتى تخلد فى روحه ، وأصبح اذا جلس فى الدكان يحسبه الرائى غائب الذهن لا يشعر بما حوله فنظرته مثبتة فى الفضاء الى بعيد وشفتاه تصفران بصوت خافت ، وأصابعه تنقر على ركبته ويتمتم كأنما يلوك علكا (١) لذيذا لزجا .

وكنت اذا رأيته على هذه الحال أعجب لنظرته ، أحس فى عامة الناس أن فى رءوسهم من وراء أعينهم سدا تصل اليه المرئيات فيصدها الى حيث أتت وتنطق بها العينان ، وهناك رءوس خلت من هذا السد لأنها متصلة بأسرار الكون ، فتمر المرئيات بالعيون ثم تهوى فى فضاء سحيق ولا تعود ــ هى عيون الحيوان والفنانين الحالمين وبعض المجانين .

وأخذ الأب يراقب ابنه ، يرتجف قلبه اشفاقا عليه ، ان

---

(١) ضرب من صمغ الشجر كاللبان يمضغ فلا يذوب .

أكبر ما يسره أن يرى ابنه فى الدكان ، كأنما يستعيد هو ذكرى شبابه حين قذف به فى الحياة مبكرا ليكسب رزقه ، لم ينصحه ناصح أو يبصره خبير ، ومع ذلك فقلب الأب لا يغبط الابن على حظه ، ان أكبر سعادته أن يحوطه بعنايته ، ويمهد له السبيل ، ويجنبه المآزق ، ويقوده برفق فهل تضيع كل هذه الجهود عبثا؟ هل ينهار البناء بعد أن أقيم بصبر حجرا على حجر ؟ واذا أبوه يفاجئه فى يوم بسـؤال :

ـ ماذا تريد أن تفعل بنفسك فى هذه الدنيـا ؟

صمت الشاب خجلا ، ثم رفع رأسه وقال :

ـ أريد أن أكون ملحنا ، فهذا ما خلقت له وجبلت عليه .

كأنما طعن قلب الرجل بسكين .

ـ وهل هذه المهنة ، ان شئت أن تسمى التلحين مهنة ـ توفر لك رزقا لا أقول فسيحا ، بل رزقا يكفيك ذل الحـاجة أو الفـاقة ؟

ـ لا أدرى . لم أفكر فى ذلك فأنا مسير لا مخـير ولو استطعت أن أصم أذنى عن الأنغام لفعلت ، اكراما لك ، فاننى أود أن أكون لك طيعا لا عصيا .

ـ يا بنى اننى لا أطلب منك جزاء ، وكل ما أريده لك أن

تكون رجلا فالحا . والرجولة لا تكمل الا اذا قمت بواجبك وأديت عملا فيه نفع للناس. وعمران للأرض وتكثير للرزق ... موسيقى ؟ تستطيع الدنيا أن تعيش فى رغد بلا موسيقى ، ولكن لا تستطيع أن تعيش يوما واحدا بلا خبز . يا بنى ان الانسان لم يخلق عبثا ، خلق للجهاد لا للأحلام فأنت ترى الطفل يولد قد ضم يديه ورفس برجليه ، وبكاؤه تحذير بأنه مقبل يشق طريقه بعزم فى معترك الحياة . بذمتك هل رأيت طفلا يولد وهو يدندن ؟ ..

أطرق الفتى وقد تندى جبينه ولم يجب . وأدرك أبوه أن كل جهد عبث . وليس فى الحياة ألم أشد من ألم الأب حين يرى كل ما يبذله لابنه من محبة وعناية كأنه نفخ فى قربة مقطوعة فغضب عليه ، وأقصاه من مجلسه وقتر عليه المال .

وانضم أكثر أهل القرية للأب وازدروا بالفتى وأهوائه وعد عندهم أحمق مأفونا . أما نحن رواد الحان فهو عندنا عزيز أثير، نحبه من كل قلوبنا ، ولا تمنعنا الأثرة من أن نرجو أن يتاح له السفر للعاصمة ليتزود من العلم ويشتهر بين الناس ، ونعجب لهذه السعادة البينة التى تغمر روحه ووجهه ، رغم ما يلقاه من عنت أبيه وسوء ظن عشيرته . وكان يقول لى :

ـ مسائل الأكل والشرب هينة ، وليس هناك انسان يموت

جوعا أو ظمأ ، وانما هى الأطماع ، وليس لى مطمع فى ثراء أو بذخ ، بل سعادتى أن أعيش حرا لنفسى طليقا ، وأن أعبر بألحانى عن كل ما أسمعه وأحس به ، وأنا واثق بأننى سأسعد كثيرا من الناس ، ولو حيل بينى وبين الموسيقى لتحطمت روحى ، ولعل اندفاعى مبعثه اننى أحب أيضا أهل بلدى اذ أشعر أن عندى شيئا أريد أن أقوله لهم ، وأنا ضيق الصدر بأغانيهم هذه الأيام، كلما سمعتها نبض عرق الحياء فى جبينى . اننى أتأفف من تلك الأغانى المبتذلة الخليعة كأنها صدى لفراش عاهرة ، كيف تدخل هذه الأغانى بيوتنا وتجرى على ألسنة أطفالنا ؟ هذه نكبة ؟ سمعت كثيرا وصف أدواء هذا الوطن وترتيبها أما عندى فهى : الأغانى الخليعة ، والفقر والجهل والمرض . نعم ، اننى أضع الأغانى الخليعة فى رأس القائمة .

واذا سألت كيف يجيء هذا الفتى للحان أجبتك أنه لايحب الخمر ولا يشربها ، ان روحه كجواد أصيل يعاف السوط ويكره أن تكون بدائع الفن وليدة عقدة نفسية أو حرمان جنسى أو أبخرة الخمر ووهم المخدرات ، فكل نتاجها سراب خادع ، قد يبرق ، وقد يرتوى عليه الضال ، اذا خبطه الهذيان .. ولكن صدقه نفاق ، وعمره هباء ووجوده زوال .

ولما دخل الحان وتجمعنا حوله نظر الينا وقال :

ـ دافع خفى يسوقنى اليكم فأنا أحب مجلسكم وأحب

جو الحان ، كما هو رغم ما يخالطه من رائحة مرحاضكم يتبادل عليه شاربو الجعة منكم ، انني أحس هنا بالدفء والحياة ، كما أحس بها وسط الحقول وبين الأزهار ، ان الساعات التي أقضيها معكم تلهمني أحسن ألحاني وأنتم كل مالي من أصدقله في قريتنا سـامحها الله .

قال له صاحب الحان بابتسامة خبيثة :

ـ ولماذا لا تعترف بأنك تبحث أيضا من جمهور يسمع ألحانك وأنت ضامن وده ؟ فلا أظن الالهام يدوم طويلا اذا لم يتصل الفنان بالناس وتجمعهما تلك المجاوبة الروحية التي هي قوام كل نتاج فني وهدفه ؟

ـ قال له الفتى :

ـ يا جاهل ! انني ألحن أولا لنفسي ، وانني كريم أحب الناس فليس أشهى على قلبي من أن أشركهم في تذوق كل جمـال وهبته .. ماذا تريدون أن أعزف لكم الليلة ؟

قال له القصـاب :

ـ اسمعنا أولا من القـديم حتى اذا أسلكت أنغامه في آذاننا ورسبت في قلوبنا دخلت بنا في الجديد من ألحانك اذ نصبح أكثر فهما لها وأسرع احساسا بالفرق بين الاثنين .

فقاطعه القزم قائلا كأنه خبير بالفنون جميعها :

ـ اتركه لمزاجه ، ان الفنان لا يؤمر •

وأخذ الفتى يعزف لنا من القديم ألحانا وتقاسيم تشربت بها نفوسنا فى لهفة ، تذكرنا بها آباءنا وأجدادنا ، وبساطة حياتهم ، وماضى عزنا القديم ، ولكن نفوسنا كانت كقطعة الاسفنج ، سريعة الامتصاص ، سريعة الارتواء •

هذه الموسيقى عبث صبى يرسم بعصاه على الرمل أشكالا هندسية متداخلة متشابكة متكررة لا يعرف لها أول من آخر، ولا مبدأ أو نهاية ، اذ ليس لديها ما تقوله ، والعجيب أن هذه الأنغام الضحلة تهصر قلوبنا بمقدرتها الشيطانية على اثارة الحزن والأسى والتفجع ، ولا بأس بها ان فعلت ذلك لو انتقلت الى فتح باب الأمل والبهجة ، ولكنها تلح فى الأنين وتبالغ فيه ، حتى يبلغ درجة التمزق والانهيار ، وخليق بالمرأة اذا سمعتها أن تلطم خديها وتشق جيوبها ، وبالرجل أن يحس بأنه يغوص فى بئر عميق مظلم يرميه فيه قدر قاس لا يرحم ، لا مفر منه ، لا يقابل الا بالاذعان، وكل جهد فى مقاومته ضائع هباء ، وليس لسامع هذه الموسيقى اذا أراد أن يعبر عن استحسانه لها الا أن يتأوه ويتفجع •• واذا مالت الى البهجة ، لم تجد الا أنغام « النقر وتلعيب الحواجب » وترقيص القرود •

وليس من العجيب أن تسرى بالعدوى ضآلة هذه الموسيقى الصبيانية الى الكمان ذاتها، وهى الآلة الموسيقية التى تضم الأنغام جميعها ، فهى فى يد العازف من أهلنا لا تزيد عن ربابة من وتر واحد . اننى أرى الكمان حينئذ كالمرأة الحرة الشريفة حكم عليها الزمان فأصبحت مومسا .

وقال الفتى بعد قليل :

ــ يكفيكم هذا واسمعوا الآن شيئا جديدا .

وعزف لنا ألحانا ليس فيها الاعيب البهلوان أو رقص القرود أو دقة الزار ، بل أجبرنا أن نصمت ونتأمل ، وشعرنا بسعادة كبرى تغمر نفوسنا ، وخال لنا أن الدنيا مذ خلقت والى أن تفنى دنيا جميلة ليس فيها خبث أو نكر ، وان للانسان مطلبا أسمى من حاجات دنياه ، واعتزم كل منا فى قرارة نفسه أن يكون من غد أطهر قلبا وأعف يدا ولسانا وأكثر مودة للأهل والناس .

وبعد أن فرغ الفتى نظر الينا وقال ، كأنه نسى ما عزف :

ــ سأفضى لكم بسر ، سأسافر بعد قليل الى العاصمة . وسأشق فى الحياة طريقى كما أريد ولو ذقت الفاقة والجوع .

ثم تركنا ، يخشى اثارة غضب أبيه اذا طلع النهار فلم يجده فى فراشه .

وعاد الحان مرة أخرى الى هدوئه ، فلم يبق فيها الا نفر قليل كلهم صامت مطرق ، وجمد صاحب الحان وراء النصب يدخن لفافته ، وسمعنا وقع أقدام فوق السقف ، وخفت ضوء المصباح يردد أنفاسه الأخيرة ، وانصرف الجميع واحدا بعد واحد، وكنت تلك الليلة آخرهم ، فلما مررت أمام صاحب الحان استوقفنى قائلا :

ـ العجب لك ! انك تشارك الجميع أفراحهم وأتراحهم ، كأنها أفراحك وأتراحك ، فسعادتك مضاعفة ولكن ألمك أشد ، أليس لك أنت أفراح وأتراح)

فضحكت فى وجهه وقلت له :

ـ لا يليق بصاحب الحان أن يكون أشد من رواده سكرا، أنت تهذى .. خير لك أن تقتدى بأصحاب الحانات من الأجانب فى العاصمة رأيتهم يصبون الخمر للفقراء وهم أنفسهم يشربون كوبا من اللبن ويضحكون .. الى اللقاء يا عم فى غد ، صبحك الله بالخير .

وخرجت فتلقفتنى السماء بنجومها ، والحقول بأريجها . والليل خاشع .. لأنه يحتضر ..

٧ - فترة تريث

اننى أكتب هـذه المذكرات ، مقطعة ، على مهل ، أنتزع لها الوقت انتزاعا ، ولكننى لا أبدأ فصلا جديدا الا اذا تلوت بعين الغريب كل ما سبقه كلمة كلمة ، فبهذا وحده يدخل الكاتب من جديد فى الجو الذى تركه ، ويتسق أسلوبه ، وتشرب فصوله كلها من معين واحد ، ولو ترك نفسه ــ وهو بشر ــ عبدا للساعة التى هو فيها لتباين قوله فى غير مطلب فنى ، فهو حينا نشط ساخر ، وحينا ضجر ملول ، وأحس القارىء الناقدأنه يسير فى طريق غير مستو ، بعضه معبد وبعضه ملىء بالحفر .

ولهذه التفلية نفع آخر ، فانها تعين على اصـطياد الألفاظ الكاذبة ، ولبعض الألفاظ طبائع الطفيلى ــ تندس فى الكلام ،

كأنما بدافع الغيرة توهم أنها خير لباس يصلح للمعنى فى حين أنها تفسده وتقلب جده مزاحا ومزاحه سماجة ، فيقصيها الكاتب ويمد يده بعد أن برأ من خداعها الى الألفاظ الصادقة ، فتأتى له عـلى استحياء ، شأن كل حر أنوف لقى من قبلى صدا .

وقد يرى الكاتب أنه رفع بعض البديهيات الى مصاف الحكم ، أو أنه أوجز قولا مغمض وكان يحسبه فى نجواه لنفسه بينا ، أو أنه أتى بأدلة أخرى بعد البرهان القاطع وقد يرى أنـه سقط فريسة سهلة فى حب لفظ واحد فهو يتكرر كل سطرين أو ثلاثة ، فيعجب كيف فعل هذا ، ويلوم نفسه ، ويجرى قلمه بازالة هذا الشطط ، ولعله يزيله بشطط جديد أشد نكرا وحماقة .

وأنا حين أحببت اليوم أن أمضى بهذه المذكرات الى غايتها لأستريح منها وتلوت ما سبق من الأوراق لم أتمالك نفسى من أن أتريث قليلا ، يعترضنى سؤال يجول بذهنى : أتراك أنصفت حقا وصف قريتنا كمـا هى نيتـك ؟

ان حديثك عنها هو الهامش لا المتن ، انك اقتصرت فى الكلام على بعض الناس دون بعض ، وخصصت باهتمامك الحان وحده ورواده ، لأنك واحد منهم ــ وهم شواذ ، وصفتهم أشتاتا لا يجمعهم رباط واحد ، شأن ضيوف « الألبوم » ، الغـريب فى قفا القريب ، أو كهذه المرايا المضحكة فى حدائق الملاهى ،

مصطفة جنبا لجنب تنطلق للمار أمامها برسوم متباينة ، وما هي جميعا الا رسمه هو ، فلم يخف وصفك للأشخاص — رغم تحايلك على التستر — من انعكاس صورتك أنت ، وأجريت على ألسنتهم كلاما لا يتوقع من أمثالهم — وهو كلامك أنت ، وهذا تطفل أو غرور ، أو كلا الوزرين معا .

وليس لى من اجابة على هذا السؤال الا ابتسامة تذوب فى صمتها حجته ؛ نعم ، لعلى أرهقت القارىء ، والناس تحب اليوم أن تقرأ للتسلية ، ولكنه لو منحنى بعض ثقته فسيرى بعد قليل أنه سيعيد تقليب « الألبوم » فيبدو له أهله فى صورة جديدة ويرى رباطهم ، فان الكاتب يحب أحيانا أن يتخابث فيحجز فى يده بعض أوراق اللعب لا يكشفها الا حين يحلو له ، متى قدر أن صبر القارىء قد تداعى أو أن لهفته قد بلغت أقصى مداها . ويعلم الله أننى ما أردت التخابث وانما هكذا انشق الدرب أمامى ، ولو استطعت أن أجمع كل ما عندى فى صفحتين لفعلت ولو اهتديت الى نسق آخر أكثر تسلية للقارىء لما عدلت عنه فكيف ينغص عليه من يطمع فى الفوازير بوده ؟

واقتصرت على وصف بعض رواد الحان ، وتركت بقيتهم خشية الاطالة — لأنهم هم الذين وجدت فى حياتهم عبرة ، هم الشواذ ، مقدر عليهم — وهذا دورهم المقسوم لهم فى دنيانا —

أن تتركز فيهم حدة المتاعب والمشاكل الموزعة ــ حتى تبدد أثرها ــ بين العامة ، فهم خير من ينطق بما هنالك ، وهم أيضا ــ وهذا عدل تحت قناع من الظلم ــ أول من يتلقى الصدمة اذا أصيب كيان المجتمع بهزة ، كالنتوء البارزة فى الجذع ، عنوان سر الشجرة ، ومكمن الحياة لفروع جديدة ، أول ما يسقط اذا أريد تهذيب هذا الجذع .

أما بقية أهل القرية فهم ملح الأرض ، يكسبون رزقهم بشق الأنفس ، يكابدون ــ كالحيوان ــ من مطلع الشمس الى مغربها ، عملا مرهقا تنجزه الآلات فى بلاد أخرى بأيسر جهد ونفقة فى وقت قليل . وليتهم بعد ذلك فازوا بما يقيم أودهم أو بستر عريهم ــ وهم مع ذلك قانعون . حاروا فى فهم القدر ، وتعليل أسباب الخلل ، وطال تساؤلهم متى تنتهى المظالم وتنعدل الأمور ويستقيم المعوج ويعم السلام ؟

وهم مع ذلك صابرون ، أصبح مطلبهم الأوحد أن يتركوا لانفسهم ، لنسائهم وعيالهم ، لدوابهم وشقائهم ، لايمانهم وخرافاتهم . كل جديد فى الحياة عندهم ضئيل اذا قيس الى قديمهم . وان أمنع الدروع هو الذى يلبسه من لا يبالى .

اذا قالوا « انما الأعمال بالنيات » عنوا بها « انما الأعمال بخواتيمها » واذا لم تر وجوههم مبتسمة أغلب الوقت فلأنهم يضحكون فى سرهم من الخطيب والبهلوان ، والواعظ والمهرج .. خليها على الله !

٨ - وصول الأستاذ

أعد المسرح منذ الأزل للحظة الموعودة ، ودق الجرس ، ورفع الستار : المكان : المحطة وجسر السكة الحديدية مندس كالأفعى يشق الحيضان الخضر ، الزمان : بعد الفجر بقليل ، وكان الليل قد جرجر أذياله واختفى ، كأنه لم يكن أبدا ، لم يبق منه أثر ولو فى حجم البرغوث ، والنهار طفل راقد فى مهده ، تناغيه سماء تحنو عليه ، ناعسة العين ندية الأنفاس ، والنخل هش مذاب فى صبغة من الورد والضباب ، الجمهور : لا عبرة بالعدد ، بل يكفى متفرج واحد يختاره القدر •

وخرج سائق العربة الفرد مبكرا ليلحق قطار الفجر وفى قلبه دعاء بأن يكون الراكب المقسوم له كريما ذا وجه صبوح

غير أنكد ، يستفتح به يوما يتعشم أن يعود فى نهايته الى داره زائط الجيب مجبور الخاطر « وأهل بلدنا يستبشرون ويتشاءمون من أول سحنة تلقاهم فى الصنباح » لقد أقعده المرض ، مرض حصانه لا مرضه هو ، عن العمل فترة ، ان تكن عند الحصان قصيرة ، فهى عنده طويلة ، وأصبح يجوع أولاده فى يوم ليأكل حصانه ، ويجوع حصانه فى اليوم التالى لتأكل أولاده ، لمـاذا لا يأكلون جميعا فى مشنة أو مخلاة واحدة ليقتسـموا الجوع والشبع بالعدل والقسطاس ؟ !!

ووصل الى نهاية الطريق الزراعى ، فوقف حصانه العجوز لا يقوى على طلوع الجسر وان تقوس ظهره وانشب سن حوافره فى الأرض ، وجلس صاحبنا على سلم العربة كعادته فى كل مرة صابرا يرقب القطار فاذا سمع ضجته انطلق الى الرصيف وتنافست عيناه وذراعاه فى اقتنـاص قادم •

ولكنه فى هذا الصباح لم يلبث أن رأى ناظر المحطة يخرج الى الرصيف وفى يده حلقة المفاتيح ورزمة من الكمبيالات حتى أخذته غفوة واجتباه حلم ، لم يتبين منه فى مبدأ الأمر غير أن روحه قد خفت الى درجة الانفصال ، فهو ــ وجسمه ملقى فى الفراش يراه كما هو رغم ابتعاده عنه ــ تارة طائر يرقد بصدره على الهواء كأنما يحمله جناحان خفيان ، وتارة معلق فى الفضـاء والدنيا كلها تمر حواليه مر السحاب ــ فجللته سعادة مبهمـة

وابتسم دون أن يحس بانفراج شفتيه ، ثم اذا به فجاة يرى نفسه يسوق عربته فى طريق ينحدر قليلا قليلا حتى انتهى به الى الترعة فوجدها جافة ليس بها قطره ماء ، بل يغطيها حسك ملتف يبلغ قامة الرجل ، وهبطت العربة الى قاعها وأطبقت عليه الضفتان ، كأنما يغوص بينهما ، وبدأ الحصان يتعثر ، ودب الخوف فى قلبه ، وأخذ يتلفت وراءه يظن أنه يسمع زمجرة السيل يدركه بعد قليل ، ورأى الفلاحات يحملن بلاليص ضخمة كبيرة ، يهبطن الى قاع الترعة ، فلما لم يجدن ماء كفأت كل منهن البلاص فوق رأسها وغاب جسدها داخله ولم يبق منه الا قدمان تسيران بكفن من الصلصال •

أراد أن يهتف اليهن « ارجعن ! ارجعن قبل أن يدهمكن السيل ! » ولكن صوته لم يخرج من حلقه ولم تنتبه له واحدة منهن • ولم ينفع حنقه على الحصان لتعثره وبطئه فى ازالة خشيته أن يكون هذا الأبكم ــ يخنقه الشكم ــ أول غريق اذا علا السيل فهو مورد رزقه ، بل زميل العمر •

وهب من نومه ، ينتفض جسده وقد تندى جبينه رغم برد الصباح ، والتفت فرأى القطار قد ابتعد عن المحطة ، والرصيف خاليا تتواثب عليه العصافير ، وأخذ يرثى لنفسه ويندب سوء حظه ، وتمنى لو حمل القطار راكبا ولو كان المهندس المخمور ، فلو أنه قدم هذا الصباح لوفى بنذره ودعاه الى النزهة

فى عربته مجانا فليس أقسى على نفسه من أن يرتد خلوا للقرية. ثم هم أن يرقى العربة ويستقر فى مقعده فاذا به وهو يودع المحطة بنظرة أخيرة يرى على الجسر رجلا ينبت من حيث لا يدرى واقفا قد جمد فى مكانه ، يستقبل الطريق الزراعى ، كأنما يدرسه قبل أن يهبط اليه ولعل اتجاه نظرة السائق من أسفل الى أعلى ، أو لعل طول ظل هذا الرجل يسيل من موطىء قدميه على الرصيف ، وينسكب فوق الجسر ، وترقد رأسه فى الحقل ، لعل هذا أو ذاك هو الذى جعل القادم يبدو للسائق فى صورة رجل ضخم عملاق يسيطر على الكون . ولكن شخصه ظل مع ذلك بينا محـــدد الأطراف كصورة مرسومة بالفحم على صفحة الأفق والضباب ، كأنه ثقب مفتاح فى قفل باب لا تحتويه النظرة لضخامته .

تأمله مليا فوجده واقفا قد وضع يده اليمنى فى جيب معطفه ، شأن من يخفى أموره ، هادئا مطمئنـــا ، ثيـــابه رغم بساطتها أنيقة ، منسجمة على بدنه ، رأسه مرفوعة فبـــانت له رقبة طويلة تنطق بأنه يأبى الضيم ، تساندها أنف مكتملة ، غير ضئيلة ولا فطساء ، لا توهنها مقارعة الخطوب ، عريض الكتفين حمال أثقال ، مستقيم الظهر لا ينحنى الا لله ..

دقق النظر اليه مرة أخرى ، كأنما يعرف ملامحه ولكن لا يذكر من هو ، وجرى اليه ووقف أمامه . وثبت القادم نظرته عليه برهة ثم خال للسائق أن عينيه تبتسمان كأنما يمتحنه ليرى هـــل

تبين من يكون القادم أم لم يتبين ، « وأكثر العائدين بعد غياب طويل يجدون فى هذا الامتحان لذة ودعابة » فاذا بالسائق يسلم عليه سلام التجلة والاعزاز ويقول له :

ـ الأستاذ !؟ ما أذهلنى عنك أول الأمر الا أن قامتك تعلو قامتى ، فقد غادرتنا وأنت صبى صغير ولم نرك منذ ذلك العهد، ولكنك مع ذلك لم تخف على ، ولم يكذبنى قلبى حين هتف أنه والله الأستاذ بعينه . أهلا وسهلا ومرحبا . قريتنا يعمها النور بمقدمك .

أجابه بصوت فيه غنة من يفكر بعقله وقلبه :

ـ أما أنا فقد عرفتك لأول وهلة وعرفت حصانك وان كنت وجدتك قد اشتعل الشيب فى رأسك وزاد نحولك ، أما حصانك فقد برزت عظامه شبرا آخر ...

قال له متبسطا :

ـ لا عجب أن عرفتنى ، فليس فى القرية غربة أخرى ، ونحن الفقراء نجمد على صورة واحدة وزى لا يتغير ، فاذا اشترى أحدنا ثوبا جديدا اختاره من قماش ثوبه القديم ولونه، لا نسأل الا الستر وحسن الختام .

ـ بل أذكر اسمك واسم أولادك كلهم .

ـ ولكن أكثرهم ولدوا لى بعد سفرك ..

ـ ومع ذلك أعرفهم وأعرف عددهم ..

هم أن يسأله كيف عرف ذلك ، لكنه تخاذل ، بالرغم من أن الأستاذ يبتسم ، ويحدثه بألفة ، الا أن السائق أحس بأنه رجل لا يحب الهذر ، ولا الاطالة فى الكلام ، ولا التهجم عليه بسؤال والسائق كبقية عشيرتنا عاطفى يحب المؤانسة ورفع الكلفة .

وحمل السائق ما استطاع من حقائبه ، وبقيت حقيبة أخرى فحملها الأستاذ والسائق يحلف عليه أن يتركها له وهو يأبى .

واحتل السائق مقعده ولاذ بالصمت ، ولم يدر للأستاذ رأسه وجذعه ، حين سمعه بعد قليل يقول ، وقد بدت القرية من بعيد :

ـ لم تغب عنى فى يوم ذكرى هذا الطريق ، ومع ذلك فهاأنذا أجده أقصر مما كنت أراه ، لعلى كنت أقيسه بخطو الصبى .

أراد أن يجرب مرة أخرى مبلغ حظه فى استدراج الأستاذ الى الفكاهة والمزاح . فقال :

ـ ونحن يا سيدى أصبحنا نقيسه بالقرش لا بالمتر ، فأهل قريتنا يقولون الآن ، المركز يبعد عنا ربع ريال .. وهو أجر السفر فى سيارات النقل .

فوصله من ورائه صـــوت كله جـد :

ـ هذا دليل على أن الزمن أصبح لا قيمة له عندكم وأن الفقر هو الذى جعل القرش أساس كل حساب .. هذا سيزول .. هذا سـيزول ..

وأخذ الأستاذ يشير الى الحقول على الجانبين ويقـول :

ـ أليس هذا حقل فلان الذى باعه لفلان؟ ويذكر من أخبار الصفقة وثمنها ما أكد للسائق أنه على عـلم بكل أسرار القرية وكل كبيرة وصغيرة فيها ، فعجب لذلك كل العجب ، وسـأل نفسه : ترى كيف كان يستقى معلوماته ؟ هل له فى القرية أشياع يمدونه بهذه الأنباء ، دون أن نعلم من هم ؟ وهل يظهرون وقد عاد الأستاذ ؟ واذا ظهروا معه فما الذى يفعلون ؟

ومن شأن الابهام أن يحمل النفس على الخشية والخوف، ولكن السائق أحس بنشوة عجيبة وأن القرية مقبلة على أمـر عظيم ، تمنى أن يكون له من ورائه خير كبير ، فمن يرى راكب العربة كما رآه هو يؤمن بأنه يحب أن يعم القرية العدل والنظام، وأن يده نظيفة وقلبه طاهر شفوق !

٩ - النية والعمل

وذاع خبر وصول الأستاذ الى القرية فسر له الناس وان أصاب وكيله غم كبير ، وذهب للسلام عليه أقاربه ، ومعارفه وفلاحو أرضه . وكثرت الاشاعات من سبب عودته ، وتناقلت الألسن أقواله ، فوجدنا فيها لأول مرة اهتماما بالغا بالقـــرية وأحوالها وما لحق أهلها من ضنك وفاقه وما عمهم من ظلم وجور.

وذهبت أنا أيضا للسلام عليه وكنت عرفت وصـفه من السائق وأثره فى قلبه ، وكان بلغنى أنه قضى معظم نهار الأمس فى التجول بين دســاكر القرية ، وأمضى ليلته وحجرة مكتبه مضاءة وهو مكب على القراءة والدرس ، ومع ذلك وجدته فى الصباح نضرا بساما . واستقبلنى ببشاشة وأجلسنى الى جانبه.

شىء خفى فى هذا الرجل جذب اليه قلبى، أحسست أنه قادم على تحمل عبء باهظ سيحرمه لذة الراحة والسكينة والدعة ، وأحببت أنا أيضا أن تزول الكلفة بيننا ويفتح لى صدره ، فقد تملكنى منذ جلست اليه شعور الأم التى تريد أن تقى ابنها كل سوء ، وقد رأيته يفهم هذا منى ، ويود لو أنه حقق أمنيتى ولكن أدركت أنه التزم الصمت ، والانطواء على النفس والحذر قبل القيام بأقل خطوة ، لا لأنه لا يعرفنى بعد ، بل لأن الدور الذى سيقوم به يفرض عليه — وان تألم لذلك — نوعا من العزلة والترفع عن الناس ، فمن أراد أن تكون نظرته شاملة ليس أمامه الا أن يترك السهل ويرقى قمة الجبل ، حتى تستبين له روابط المرئيات ونسبة بعضها لبعض ، وهو ما يستعصى على النظرة القريبة .

ولم يمح فهمى لموقفه ما تملك قلبى من اشفاق عليه ، فكل رجل يجد نفسه — بدافع من غريزة الأنانية — يضع رغباته أولا فى رأس القائمة ، ويتخذها المحك الذى يمتحن به بقية الناس وآراءهم ومشاكلهم ، وقلت : لعله ان فعل لم يجد قصصى كلها تهدف للتسلية وحدها .

لذلك جلست أمام الأستاذ مطرق الرأس لا أدرى ما أقوله ثم قمت وصافحته ، أنظر الى عينيه الوديعتين فأرى فيهما مزيجا

من الطيبة والعذاب ، والجهد والصبر • والمحبة والنسيان من أجل ما هو أهم ••

ولم أتمالك نفسى من الألم ــ وهذا شأن الانسان ! ــ حين سمعت أن الأستاذ قد قال عنى حين جاء ذكرى فى مجلسه :

ــ من هو ؟ آه ؟ هذا الصامت السارح ؟ ليس لى وقت أضيعه معه ومع أمثاله ، اننى اريد رجال عمل لا بطانة سمار ••

وتركنا الأستاذ بضعة أيام فى حيرة من أمره لا يفضح عن أغراضه ونياته بالتفصيل ، ثم أعلن أنه يدعو أعيان القرية الى لقائه فى داره بعد الصلاة الجامعة فى يومها القادم ليتحدث اليهم عن أمر جليل • فلم يتأخر عن اجابة دعوته الا نفر قليل • وجلس الحاضرون فى حلقات من خلفها صفوف ، فالأعيان هم أيضا مقامات •• وجلست أنا فى ركن قصى •

ولما اكتمل الجمع واستنفدت التحيات والمجاملات وما أكثرها عند عشيرتنا ! ــ وقف الأستاذ ومن حوله نفر من شباب قريتنا نعرفهم بالجد والصرامة والاستقامة والكتمان ، وأدركت أنهم هم الذين كانوا على اتصال به ، يوالونه بأسرار القرية ، وساد الصمت ، وشخصت اليه الأبصار وتعلقت به الأسماع ، وقال فى صوت يكاتم هياج عواطفه الجياشة :

ــ لقد أعملت فكرى طويلا كيف أقدم لكلمتى ، وانما

درت وجدت أن لا مفر من أن أتحدث عن نفسي ، وأنا أمقت ذلك ــ علم الله ــ مقتا شديدا ، ولكن قضت طبائع البشر ومعاملاتهم أن لا تفريق بين المبدأ وصاحب المبدأ ، بين القول وقائله ، فكما أن الناس قلما ينتفعون بكلمة حق تجيئهم عفوا على لسان الباطل الذي لا يخفى عليهم ، فكذلك قلما يصيبهم مكروه من لفظ باطل يدسه الشيطان بخبثه في كلام المفطور على المحبة والعدل ان أخلصوا ايمانهم به ، فأنا أحب قبل أن تزنوا كلامي أن أطمئنكم على ما وراءه من نية وقصد ، فأنا ابن هذه القرية ، بها رضعت وحبوت ، هي موطني ومستقري ، اليها أعود وبها أدفن وأنا واحد من عشيرتكم . ليس بينكم رجل الا تربطني به صلة القرابة أو النسب أو الصداقة والتعاطف ، فهل يجوز بعد ذلك أن يخامر الشك من له أقل مسكة من العقل أن أتعمد خداعكم أو استغلالكم ؟ ان الضرر الذي يصيبكم يلحقني ، والخير الذي يعمكم يشملني ، حتى الأثرة والدفاع عن النفس يقضيان على بأن أحب بلدي وعشيرتي وأن أسعى جاهدا لينعما بالسعادة والرخاء ، لا أطمع لنفسي في منصب أو مال أو جاه أو أصيب خيرا أمتاز به عنكم .

ولكن النية وحدها ان لم يصحبها العمل جنين لم يولد ، كل كلام عنه فضول ، ملاحته أو دمامته ليست لنا بل لنفسه ، وكل عمل لم يسبقه اتخاذ الأهبة والاستعداد حماقة وتهور

وادعاء .. وما نخسره من اضراب القادرين على العمل أهون بكثير وأسهل تداركا وعلاجا من الضرر الذى يصيبنا من عمل المتسرعين .

استبان لى هذا حين فرغت من مراحل التعليم وأزمعت العودة اليكم وكان غيابى يؤجج محبتى لبلدى وأهلى حتى بلغت حد الوله وملكت على قلبى ولبى ، وهى ضجيعتى فى أحلامى ، وهى رائدى أينما سرت ، ولكن كيف أخدم بلدى وأجاهد لرفع الظلم عنها ، انه ظلم عتيق متغلغل متشعب .

ومكثت الشهور الطوال حبيس حجرتى لا أنقطع عن الدرس والتأمل فاستبانت لى الحقائق ووضح الطريق .

وقلت ما دامت النية صادقة وما دام الاستعداد قد كمل ، فقد هانت الصعاب ، وكان أول ما فعلته أن خلوت لنفسى وجئت بورقة وقلم وقلت لأكتبن ما تشكو منه القرية مسلسلا فى جانب، لنحصر موضوع البحث ، ونكون فى الصورة ، وليسهل ذكر العلاج الناجح أمام كل داء .

ولم أكد أفرغ من حصر الأدواء حتى تبين لى أنها تفاصيل لا علاج لها ما دام الأساس الذى تقوم عليها جميعا هو منبع الفساد . هذا الأساس هو ما قد قر فى أنفس أهلها من شعور الضعة والهوان ، والتسليم والسكوت على الظلم ، وايثار

الراحة والسلامة ولو كان فيهما الذل على الجهـاد ولو كان فيه بعض الفداء ، والنكوص عن المطالبة بالحق واهمـال أداء الواجب ، وهذا هو الضياع بعينه •

سأعمل اذا جاهدا على بث شعور العزة والكرامة فى قلوب أهلنا واقناعهم بأن خلاصهم فى الشجاعة فى المطالبة بالحق وأداء الواجب على حد سواء •

وقد اعتزمت أنا وأصدقائى أن نحمل الناس على سلوك هذا الطريق بالحسنى أول الأمر ، والا فبالزجر والشدة وستتطوع منا جماعة لمراقبة الناس فى المتاجر والأسواق ، بل فى بيـوتهم اذ ينبغى لكل معوج أن يستقيم ، ولا يقبل منه عذر ، وأن ينصرف الرجال الى عملهم معرضين عن اللهو والعبث ، فالوقت ضـيق والشوط أمامنا طويل •

ولما فرغت من الأساس رجعت الى التفاصيل التى كتبتها فى القائمة فوجدت أن وصف العلاج لكل حالة لا يحتاج الى تفكير طويل وجرت يدى بذكر العلاج الناجع أمام كل حالة ، فى جلاء لا يعتبـوره شـك أو ريبة •

فأول المظالم هو ما يعانيه الفلاح فقررت أن أتولى أمورهم وأفوز لهم ــ بفضل وقوفهم ورائى ــ على تحديد الايجار بمبلغ معقول لنوفر فى أيديهم المال ، وسأكون أنا أول من يطبق هذا

النظام الجديد على نفسى ، وسأحصل لهم أيضا على موافقة الحكومة على أن تبيعهم ما تملكه من أراض واسعة فى زمامنا لقاء ثمن زهيد يدفع على أقساط طويلة ــ وسألاحق الملاك حتى يقتدوا بى فى بناء دور جديدة للفلاحين ، يمد لها الماء والنور •

• وآخر مظالم القرية عهدا هو حرمانها من السكة الحديدية وسأسعى لرفع هذا الظلم بكل قواى وسأنجح باذن الله •

ثم ينبغى اغلاق الحان لأنه بؤرة فساد ومدعاة لانصراف الرجال عن بيوتهم ، فهو يجمع الضال والعابث على الخائب والسارح « وهنا شعرت أن الأستاذ يثبت نظرته على » وينبغى أن يعمل كل عاطل ، وأن يسدد كل مدين دينه ، وأن يتوب كل زوج فاسق ، وكل ولد عاق ، وأن يصان شرف كل رجل ولو رغم أنفه ، لئلا يكون قدوة سيئة لغيره ــ فان حماية الأخلاق من شأن الجماعة قبل أن تكون من شأن الأفراد •

هذا ما أريد أن تعينونى عليه ، ومن أجله جمعتكم •

من منا يأبى أن يستجيب لداعى الخير والفلاح ؟ هب الجميع والتفوا بالأستاذ وأصدقائه ، يبايعونه على السير وراءه واتباع مشورته ونصحه ، ثم أخذ بعضهم يهنىء بعضا بهذه الروح الجديدة التى ستعم القرية وكل منهم يحسب فى قرارة نفسه ماذا سيكسبه أو يخسره ، مفضلين التريث الى أن تنجلى الأمور •

١٠ - غياب

من طبعى أننى أحب الراحة واستمرىء الكسل ، وقد أعدل عن النهوض اذا مددت قدمى فلم تجد الخف فى مكانه ، وكفى بالكسل رائضا على الصبر ، والصبر سيد الفضائل وأشقها منالا ، واذا كنت كذلك فاننى أكره اقتحام الأبواب ، ونبش الأسرار ، وتتبع الأنباء والاشاعات ، ولكننى وجدت نفسى فى الفترة التى أتحدث عنها ، يدب فى نشاط لم آلفه ، هو أشبه شىء بالقلق ، فأعصابى متوترة ، تناوش روحى كوجع الضرس ، ذبذبة وهزات ، وأصبحت لا أطيق الاستقرار فى مكان ، وزاد تلفتى وتطلعى ، وعرفت الأرق ، وكم من ليلة هممت فيها ـ ثم كففت وهمى ـ أن أطل من النافذة لأتسمع ، يخيل الى أن الجو كله مشحون

بنذر ، وجعلت همى أن أدور على أصدقائى وأصحابى لأطمئن عليهم فأجدهم فى أتم صحة وسلامة ، ثم لا ألبث أن أعود أدق بابهم فى المساء أو فى الصباح من غد ، كأننى أخشى كل مرة أن أتزود منهم النظرة الأخيرة . وصرت لا أسمع عن خبر الا جريت له : أريد أن أكون فى كل جهة ، وأن أشهد كل ما يحدث، كأننى سكلف من قبل قوة خفية طاغية بتسجيل تاريخ الأيام .

واذا بى أنهد فجأة ، افترسنى — ولا أدرى كيف — مرض لئيم متستر امتص عافيتى واستنزف قواى وقيدنى بالفراش وكان عذابى لانقطاعى عن الحركة وتتبع أحوال القرية يشعل ذهنى ، أشد ما أعانيه .

وجاءنى طبيب القرية ، وهو رجل طبب ، لا يزال يغسل يديه كما كان يفعل أطباء آبائنا وأجدادنا — قبل الفحص وبعده، ورأيت من نظرته أنه حكم بأن دائى خطير ، وان هلاكى أقرب الى الاحتمال من شفائى ، ونصحنى ، وهو يطمئننى ، أن أغير الهواء وأسافر للعاصمة فيتاح لى أيضا — كما يقول — أن أعرض نفسى على أطبائها الأعلام .

وهكذا غادرت القرية رغم أنفى — نادبا سوء حظى ، وأكذب اذا زعمت أن الخوف من الموت لم يحتل قلبى . أو أن انشغالى على الغير ظل على حاله مع انشغالى على نفسى ، ولكنى عالجت الخوف بالتوكل على الله ، ولم أثر حين رأيت انشغالى

على القرية ينقلب من انشغال اللاعب فى الميدان الى انشغال المتفرج البعيد ، وشتان بين الاثنين •

ودخلت احدى مستشفيات العاصمة وأنا لا أتمالك نفسى من الابتسام ، وكنت اذا نزلت من قبل فنادقها ، المخصصة للطبقة الوسطى ، أحسست — والوحدة ترهقنى — أن حجرة الفندق فى عصرنا كبائعات الهوى لا تفتح أذرعها الا لمن يريد الانمحاء فورا فاذا طلب منها الأمن والدعة والسكينة طردته هذه الأذرع ذاتها بغير شفقة ، وكنت أقول لو خيرت لاخترت النزول ولو أننى غير مريض فى احدى المصحات ، فهى أنظف وأرحم ، ومن تحدى القدر فأصابه بالمكروه الذى تشوف فلا يلومن الا نفسه •

ودفعنى طبيب الامراض الباطنية الى طبيب الاسنان ، وهذا الى طبيب الأشعة ، وهذا الى طبيب الأنف والاذن والحنجرة، وهذا الى طبيب القلب وهذا الى الجراح ، ثم قالوا لى ينبغى لك السفر الى بلد أجنبى فلا شفاء لك الا بجراحة دقيقة ينفرد بعملها طبيب من أهل ذلك البلد • واذا بى أغادر القرية وحدها بل أغادر القطر كله •

وغبت أكثر من سنة ••

الكتاب الثاني
اليوم

١ - المحطة وكناس المحطة

أول نبأ وصلنى عن القرية بعد أن عدت الى العاصمة تلقيته من فم صراف التذاكر ، سألته تذكرة لمحطة الجسر ، فالتفت الى مندهشا وقال :

ـ صح النوم ! ألا تعلم أن هذه المحطة قد ألغيت منذ شهور واستبدلت بها محطة أخرى ؟

فأدركت أن الأستاذ قد نجح فى تحويل الخط الى قريتنا ، وأخذت التذكرة أتأمل اسم قريتنا عليها مبتسما متعجبا مسرورا، واحتللت مكانى فى القطار ، وعلى لسانى ألف سؤال ، ولكن نفسى هادئة لا تعرف القلق ، فقد عاد لى مع الشفاء طبعى القديم! حب الراحة واستمراء الكسل .

ومضى أغلب الطريق وأنا سارح الذهن ، ثم أخذتنى غفوة

لم تغلب الشوق فاذا بى أستيقظ من تلقاء نفسى والقطار يهم بالوقوف على محطة قريتنا .

ما شاء الله ! ما شاء الله ! .. متى أقيم بناء المحطة ومنزل الناظر والرصيف وكشك الاشارة ؟ ولكن أين أنا ؟ ألم يكن هنا مكان السوق ؟ وأين ذهب السوق يا ترى ؟ ما أجمل هذا الميدان الذى خرجت اليه ، ووقفت أتأمل ما حولى . ولا تستبين عينى معالم القرية ، ألم يكن هنا منزل تاجر الغلال ؟ أين ذهب ؟ ودكان الحلاق ؟ قد اختفى ، وأين المنعطف الذى يقف عنـــده بائع العرقسوس ؟ كان هنا صف من المنازل القديمة المتواضعة تتوارثها أسر جيلا بعد جيل أين هى ؟ هل تفرقت جيرتها ؟

ومر بى عامل فى رداء أصفر يجر عربة يد . ما هذا الزى؟ فلما استوضحته علمت أنه عامل النظـــافة فى المجلس القروى الجديد . ثم استطرد يقول :

ــ لم يكن ينقصنى الا أن أكلف أيضا برفع مخلفات القطار أن الركاب لا يستحون ، لا يحلو لهم فى السفر الا أكل البرتقال واليوسفى ، بل ان بعضهم يمص القصب ، ويلقون مخلفاتها من النافذة بلذة عجيبة . وماذا يهمهم ؟ ومن الذى يستطيع الامساك بتلابيبهم وهم فى قطار يمرق كالبرق ! وما قولك فيمن لا تمشى بطنه الا اذا وقف القطار ؟ لقد نبه علينا أن نظافة المحطة عنـوان القرية وسمعتها ؟ آمنا وصدقنا . ولكن أين مصلحة الســكة الحديدية ؟ لماذا نجد نحن وتهمل هى ؟ ألم يكن الأولى أن تنفذ

هى تعليماتها أولا ، أم نحن المكلفون بتتبـــع أخطاء الغــير لاصلاحها ؟ كان العدل يقتضى ، ان كان هناك عدل حقا كمـا يدعون ـ أن تعين مصلحة السكة الحديدية عاملا من عندها يتولى نظافة المحطة والشريط . ان هذه المصلحة ينبغى قلبها رأسا على عقب واعادة تنظيمها .. يا سيدى أنا مرهق بالعمل ، أكنس الشوارع وأرشها ، وهذا جهد يهد الجبال . وهل تحسب أن أهل القرية قد كفوا عن القاء القمامة فى الطريق ؟ هم هم طبعهم لا يتغير والعياذ بالله . أفليس من الظلم أن أكلف أنا أيضا بكنس المحطة ؟! أقول لك الحق ، اننى بعد أن كنت أكنسها مرتين فى اليوم طبقا للتعليمات ـ أصبحت لا أكنسها الا مرة واحدة أول النهار ، وعلى عجل فكل العمل عندنا سلق بيض وتسديد خانة . المهم أن يوضع لنا كادر ينصفنا وتزاد علاوة الغلاء .

ولما استنفد شكايته والاشادة بمجهـــوده تنبه فيه حب الاستطلاع فسألنى من أين أنا قادم فلما أنبأته أننى راجع من بلد أجنبى من وراء البحار لم يسألنى عن أهله وجوه وعجائبه ، بل بادرنى متلهفا بســؤال واحد :

ـ كم يبلغ مرتب العامل مثلى فى هذا البلد ؟ وكم سـاعة يشتغل ؟ ..

وقفت أمامه حـــائرا مترددا ، أسأل نفسى هل أتكلم أم أصمت ثم توكلت على الله وقلت له :

ـ ماذا كنت تشتغل قبل تعيينك فى المجلس القروى ؟

ـ صبى كلاف فى زريبة تاجر الألبان .

ـ أظنك كنت تدعو الله صباح مساء أن يتوب عليك من كنس روث البهائم ولو اشتغلت كناسا ؟

امتقع وجهه قليلا وتمتم يقول :

ـ من أين تعرف هــذا ؟

ـ وأظن مرتبك قد تضاعف ، وهذه الملابس تصرف لك بالمجـــان ؟..

فقال غاضبا وهو يولى عنى :

ـ وما شأنك أنت حتى تحرمنى من تسلية الشكوى ؟ ومن يدريك اذا رضيت وأغلقت فمى أن ينسانى المجلس القروى ، ويمر بنا دور الترقية فيتخطانى ؟

٢ - جندى المطافىء

تركته وأنا أحمد الله أننى لا أسكن هذا الحى الذى أمحى من الوجود ، وأن منزلى بعيد عن العمران ، قانع بجوار الحقول، وسرت قليلا لا أنقطع عن التعجب والتلفت شمالا ويمينا ، فاذا بى أجد نفسى أمام مبنى جـــديد فوقه لافتة تعلن أنه « قوة المطافىء » ورأيت جنديا ضخم الجثة مفتول الشارب على رأسه خوذة لامعة ــ ان منظره يخيف ! ــ واقفا بالباب مربد الوجه كأنما يتملكه غيظ شديد .. فانعطف قلبى له ، واقتربت منه ؛ وقدمت له لفافة تبغ فتناولها بأنفة كأنما هو الذى يجود بها على، ولم أكد أسأله عن أحواله حتى انفجر فى يقـــول :

ــ أنت أول من يسألنى عن الأحوال ، لا شك أنك غريب

فى هذه القرية . فان أهلها والمجلس القروى ، لا يبالون بنا كأننا لسنا فى خدمتهم . قلت له وقد مهد لى عامل النظافة طريق الصبر :

ـ لعل لكل انسان مشاغله وعذره .

أجابنى محتدا :

ـ هذه هى الأنانية التى كانت سر شقاء هذه القرية وتأخرها ، فاذا لم تزل من القلوب ، ونحن فى عهد الاصلاح ـ فكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا ..

ـ وما هى متاعبك ؟

ـ آه ! تسألنى عن متاعبى ، ولكن من أين أبدأ ؟ ان شعورنا لأول مرة بالمسئولية هو الذى جعل لكل منا رأيا فى أحوال هذه القرية ، ولو تنازل الأستاذ وسألنى لكنت دللته على الصواب ولكنه مشغول لا يفرغ لامثالنا .

ـ الأستاذ ! وما شأنه فى هذا ؟

ـ ألا تعلم أنه عمدتنا الجديد ؟

ـ وأين العمدة السابق ؟

ـ هو مضاع الآن فى غمرة الناس بعد أن سقط فى الانتخابات وأصبح لا أحد يدرى أمره . سمعت أنه مغموم ، مع

أنه رجل عجوز ، ميسور الحال ، وأولى به أن يستريح ، فماذا يطلب أكثر من ذلك ؟

فعجبت للانسان يوصى غيره بالقناعة ، ولا يقنع هو .. ووقف برهة صامتا ، ثم توكلت على الله ، وسألته :

ـ وما هو الرأى الذى كنت تريد أن تصارح به الأستاذ ؟

ـ الرأى الذى أراه هو أن الأمور لم تسر بترتيب منطقى معقول . كان ينبغى قبل مرور السكة الحديدية وسط القرية أن تكلف مصلحة المبانى بالكشف عن دورها ومنازلها لتزيل ما هو آيل للسقوط منها ، لا يحتمل رجة القطار ، ثم تدعم ما يمكن انقاذه من المنازل المجاورة للشريط ، ولكن هذا لم يحدث ، وانى أطالب بمجازاة مصلحة المبانى لاهمالها ، أو ان تزال منها العناصر الفاسدة المسئولة عن هذا الاهمال . هناك اشاعات كثيرة عن اتفاقات غير شريفة بين المصلحة والمقاولين ، وليس هناك دخان بلا نار ، وعلى رأس من يقع هذا الاهمال ؟ على رأسى أنا .. ولا أحد يدرى .. تصور ! اننى منذ انشاء القوة لم أنقطع عن العمل لا ليلا ولا نهارا ، يا سيدى أنا مرهق . فنحن مكلفون برفع أنقاض المنازل التى تهدمت ، انظر الى يدىّ ، هل ترى الجروح التى ملأتها ؟ لقد تهدم أكثر من عشرين منزلا ، هذا الى جانب الحرائق التى دمرت أجران التبن من شرر القطار ، ونحن

• أربعة فقط فى قوة المطافىء ، وكان ينبغى أن يعمل فيها عشرة أو عشرون ، ولكن يقال لنا انتظروا الميزانية ، ونحن ننتظرها •• ولكن هيهـــات !

ـــ وهل قدمت تظلما للمجلس القروى ؟

ـــ نعم أكثر من مرة ، ولـكنه مشغول بألف مسألة ، فكيف يفــرغ لنـــا !

ـــ أصبر • سيأتى دورك •

ـــ مت يا حمار الى أن يجيئك العليق ••

وشدنى الجندى من يدى وسار بى حتى وقفنا عند الشريط وأشار الى صفوف المنازل القائمة على جانبيه ، قـــــد اسودت جدرانها واختفت أصص الزهر من نوافذها وقال :

ـــ هذه المنازل كلها متداعية ، وستنهدم واحدا بعد آخر، فكيف نعمل وماذا نفعل ؟

ـــ قد يكون الخير فى انهدامها لتنشـــــأ مكانها ميادين وشوارع جميلة أو تبنى محلها منازل جديدة نظيفة ، فهـــــذه ســـــنة الكون •

ـــ ومن يضمن أن يفرغ المجلس القروى من المنازل الجديدة

قبل أن تنهدم القديمة ، أليس هناك من يسأل أين يذهب الفقراء من سكان هذه المنـــازل ؟

ـ بحسب رأيك اذا ، كان ينبغى قبل مد الخط ، أن تبقى جميع المنازل كما هى ، ثم تبنى منازل جديدة لتهد القديمة ثم يمر خط السكة الحديدية • ولو صبرنا الى أن يتم ذلك كله لما مر الخط ولبقيت المنازل القديمة على حالها • المهم أن نبدأ ، ووسائل العلاج سهلة بعد ذلك ، وسيأتى علاج كل مسألة فى أوانها ، ومسألة استيعاب دور القرية لسكانها ليست مشكلة اليوم ، بل نحن نعانيها منذ زمن بعيد •• ولعلك لا تعرف هذا لأنك لست من أبناء القرية ، فيما أرى •

باخ غضبه ، وحار ماذا يقول ، فالمشكلة عنده أعوص من أن يهتدى لحل لها ، وانقلبت كبرياؤه الى استخذاء وهو يقول لى : ـ تصور ! المجلس القروى يساوينا فى الكادر مع عمال النظافة ، فأين الانحناء لجمع القمـــامة من الدخول فى اللهب والأسقف والجدران تنهدم •• فهل هذا عدل ؟!

٣ ـ سائق العربة

وخلفته وقد وقف بالباب من جديد مربد الوجه منتفش الصدر ، مصعر الخد ، مزهوا بما يضمره من آراء ، معتزا بما هو قادر عليه من انتقادات ، وسرت نحو منزلى ، فقد آن لى أن أعود اليه وأحط عنده عصا الترحال ، ولكن فى ذهنى سؤالا مبهما لا أتبينه . ما هو ؟ أحسست أن شيئا ينقصنى وأخذت أرتب تفكيرى وأصور نفسى وأنا قادم فى مرة سابقة من سفر وأقارن بين حالى عندئذ وحالى اليوم . آه . آه تذكرت أين سائق العربة الفرد ؟ سمرت قدماى ، ووجف قلبى خشية عليه ، كيف أصبح بعد أن ألغت المحطة القريبة معين رزقه ، أخذت أتلفت شمالا ويمينا ، وسألت بعض الناس عنه ، لا أريد أن أقصد دارى قبل أن ألقاه وأطمئن عليه .

وأخيرا وجدته عند باب المسجد ، جالسا على عتبته محنى الظهر ، مغبر الوجه ، رأيته يستجدى الناس • فاقتربت منه وربت على كتفه فرفع الى نظره ، فلم يكد يرانى حتى هب واقفا وعانقنى واغرورقت عيناه بالدموع •• وقال لى :

ــ لا تحسبنى أبكى على نفسى ، اننى حين دهمنى القطار أنا أيضا ــ فقد دهم عددا من أبناء قريتنا ، بعضهم مات صريعا تحت عجلاته ، ومنهم صبية ، فيهم من فقد ذراعه ومن فقد ساقه، وستراهم بعد أن تندمل جراحهم على باب المســجد يتكففون الناس •• حين دهمنى القطار أنا أيضا ونزلت على مصيبته وانقطع رزقى لم أسخط على الزمان ولا على من عدل الحظ • وانما كان سخطى على حماقتى أنا وسوء تدبيرى ، بلغت من العمر آخره ولم أحسب حساب اليوم الأسود ، وكان ينبغى لى على كل حال أن أتقاعد ، وأجد مما وفرت من المال ما يقينى ذل الحاجة ، ولكنى كنت أهزأ بالزمان ، وأمقت الحرص ، وأكثر من التدلل على الله • فهزأ بى الزمان ، وانتقم منى الحرص ، وغابت عنى رحمة الله ••

وانما بكائى على حصانى العجوز لو أصابه مرض مفاجىء فمات لما تفطر قلبى عليه ؛ بل لعل قلبى ينبسط حين أجده قد زايل الشقاء والتعب وأخلد للراحة تحت التراب •• ولقلت عمر وانقضى ولكنى مكثت أياما طويلة أرقبه وهو واقف أمامى ،

على سيقان كأعواد الكبريت ، ركبه خلاخيل ، فوقها بطن شخيتة (١) ، وظهر مقوس ورأس ناحلة وخشم يعشش فيه الذباب .. يذوب جسده من الجوع شيئا فشيئا حتى أصبح جلدا على عظم ومع ذلك لم يكن غاضبا على ، بل كان ينظر الى بعطف وحنان كأنه يرثى لحالى ولا يريد منى أن أرثى لحاله .. ثم نفق ولم أشأ أن ألقى بجثته فى النهر ، بل دفنته بجوار الجسر، بالقرب من شجرة الجميز .

ــ ولماذا لم تبعه وتنتفع بثمنه ؟

ــ وأين من يشتريه ؟

ــ لقد رأيت عربات نقل كثيرة محملة بالأحجار والطوب . والبناء فى القرية أصبح حركة لا تنقطع !

ــ ماذا دهاك وما الذى غيرك ؟ لم يكن عهدى بك كذلك ، تقول للأعرج اجر ؟ أفيرضيك بعد صحبة العمر أن أسلمه لمثل هذا الشقاء . ولو فعلت لما عاش أكثر من أسبوع . اننى كنت دائما اذا خيرت حين لا مفر من الظلم .. بين أن أظلم نفسى أو أظلم غيرى فضلت دائما أن أظلم نفسى .. وشتان بين أن تنام متحسرا وبين أن تنام فى عرق الخجل .

---

(١) ضامرة ، يقال فلان شخت اى دق جسمه خلقه فهو شخت وشخيت .

ـ وأنت ماذا تفعل ؟ تعال أقم فى دارى ما شئت ، وما يكفى طعام واحد يكفى اثنين ٠

ـ انك ستحتملنى يوما واثنين ولكن ستضيق برجل عجوز مثلى فى نهاية الأمر ، ان حملى ثقيل فدعنى لقسمتى ونصيبى ، ومادمت سأعيش على الاحسان ، فسواء عندى أن يكون احسان رجل واحد أو رجال عديدين ، كما هو حالى اليوم ، بل لعل احسان الذين يجهلون أمرى أخف وقعا على نفسى من احسان من يعرفنى وشهد سابق أيامى ٠

ـ اننى لا أحب منك هذا اليأس ٠ لماذا لا تقول ان القدر قفل باب الرزق ليفتح لك بابا أوسع منه ، قد يكون من ورائه خير كثير لك ، لم يكن فى حسبانك ، فان انشاء المحطة قد فتح الأبواب لأعمال لم تكن تعرفها القرية من قبل ، لا أطلب منك أن تشتغل حمالاً تنقل أمتعة المسافرين ، فقد يرهقك هذا العمل ٠ ولكن التجار المصدرين والمستوردين أصبحوا يحتـاجون لمن يشرف على شحن بضائعهم بالقطار وتسلمها وأنت تألف المحطة وموظفيها ، فهذا عمل سهل لو جربته لعاد عليك بأكثر مما حرمت منه ٠

ـ يا أخى ! أتطلب منى فى مثل هذا العمر أن أتبدل ؟ اننى كنت أسوق العربة وأنا مغمض العينين ، أعرف من وقع حوافر الحصان أى مكان بلغناه ، أعرف كل طوبة وحجر ، كل من أمر

بهم يسلمون على وأسلم عليهم بأسمائهم ، عشت هكذا ، لا سنة بل ثلاثين سنة ، فهل تظن من اليسير على أن أتلبس مهنة أخرى قد أقابل فيها الأرذال من الناس ممن لا يعرفون قدرى وماضى ؟ سينظرون الى نظرتهم الى دخيل منافس . وقد يكون فيهم من الشباب من يضيق بشيخ عجوز مثلى أشد الضيق .

ــ اننى سأكلم لك المجلس القروى ..

ــ اذن جاء الفرج ، دع المجلس القروى ياعم فى حاله ، من أكون حتى يفرغ لى ، وما أنا الا رقم فى عمود مسلسل ، ليس المطلوب أن تقرأه رقما رقما ، بل أن تعرف حاصل جمعه ليطرحه المجلس القروى من حاصل جمع عمود آخر ، فيعرف صافى رصيده فأنا وأمثالى من المطروحين .

ــ ولكن الأستاذ لا يخيب رجائى اذا حدثته عنك .

ألا تعرف أن عهد الوساطة والشفاعات قد انتهى ؟

توليت عنه وأنا آسف لعجزى عن اقناعه ، وعن مساعدته ، وعن التفكير فى مخرج لأزمته ، تركته لخالقه فهو به أرحم ، وأعجبت بالرجل وزاد قدره عندى ، لم تنبس شفتاه ــ رغم محنته ــ بكلمة نابية ، لم يسب أو يلعن ، لم التهم جزافا .

ولكن لم أكد أسير خطوتين حتى نادانى وجاءنى يقول :

ــ لعلك لم تعلم بعد أن المجلس القروى قد قرر فى جلسته

الأولى اغلاق الحان ، لأنه أس الفساد فى القرية ، وقد تشتت أصدقاؤك وقبع كل منهم فى منزله ، كما يدخل الضب الى جحره.

فقلت له متلهفا :

ــ وأين صاحب الحان ؟ اننى أريد أن أراه .

فقال وعلى شفتيه ابتسامة نصفها حزن ونصفها خبث ومرح:

ــ اذا مررت بالقرافة فاسأل عنه تجده هناك .

فظننت عندئذ ــ لغفلتى ! ــ أن صاحب الحان قد اختار لمسكنه الجديد واحدا من تلك المنازل المتواضعة التى تحيط بالقرافة ، وعزمت على لقائه ، ولكننى أجلت زيارته للصباح ، فقد كنت تعبا وأحببت أن أهرع لدارى ، فألقى كلبى الأسود ، الذى اشتقت اليه وأن أخلو لنفسى ، وأن أتسلى بورق اللعب وحدى وأفتح الفال ! وهو ما يسـميه أهل البلد الذى استشفيت به « لعبة الصبر » ..

٤ ـ صاحب الحان

كان فى عزمى أن أخرج مبكرا لأجول فى القرية ودساكرها وأشاهد حالها الجديد وأسمع حديث الناس ولكنى لم أقو على تنفيذ هذا العزم من قبل أن ألقى صاحب الحان ، بعد أن تحركت نفسى لرؤياه . فذهبت ناحية المقبرة أبحث عن منزله فلم أجده ، وسألت عنه فقيل لى :

ــ انه لا يسكن هنا ، ولكن اذا دخلت المقبرة فاسأل عن التربى فانه هو .

سبحان الله ! يشتغل تربيا ماذا جرى له ؟ ولماذا اختار هذه المهنة دون سائر المهن . هل قال لى من قبل شيئا نسيته يفسر سر اختياره لهذه المهنة ؟

ودخلت المقبرة فوجدت صاحب الحان جالسا على تركيبة

من الرخام فوق قبر ، قد أحنى رأسه على صدره ، وتندى جبينه بالعرق ، ورأيت أن بدانته قد زادت ، وبرز كرشه ، وابيض شعره .

فلما وقفت أمامه رفع الى وجها ممتقعا وعينين محمرتين ، وثبت نظرته على قليلا ، ثم صرفها عنى ، وأخذ ينكث بعود فى الأرض . أصبح ليس للزمن وللحوادث عنده حساب ، كأننى فارقته أمس فى حانه ، وكأن شيئا جديدا لم يقع بين اللقاءين ، فحرت كيف أكلمه ، ومن أين أبدأ حديثى ، كان هو الذى بدأ الكلام بصوت خافت أخذ يعلو شيئا فشيئا :

ـ لا تأس على ! يوم أغلقت الحان وجدت نفسى أمام مشكلة لا تزيد ولا تنقص عن بقية مشاكل الناس . اذا ألغيت كل شىء سواها ووقفت أمامها مشلولا ، وسمرت نظرتك عليها بدت لك داهية دهماء ، لكنها اذا ربطتها بما قبلها وبما حولها لم تزد عن أن تكون حادثة بلهاء لا خطر لها ، لو أرسلت نبأها للصحف جميعا ، ما يعنى منها بالفجائع ، وما يعنى بالمهازل ـ لما نشرتها صحيفة واحدة ـ كان على اما أن أفارق القرية ، وهذا مالا أستطيعه ، لأننى أكره الهجرة ، واما أن أنهزم وأجد طعم البطالة مرا حلوا فى وقت واحد ، وهذا ما أنفت منه ، واما أن أبحث عن عمل جديد ، ومن حسن الحظ أننى لم أتعب كثيرا ولا طويلا فى البحث عن هذا العمل ، فقد مات وقتئذ تربى القرية فأسرعت

وقبلت الحلول محله ، وهو عمل ليس عليه تزاحم كثير ، ومكسبه لا يقل عن مكسب بقية الأعمال ، فلم آكد أبدأ العمــل حتى أحسست أننى خلقت له ، وأنه خلق لى •

ــ كيف ؟ هل يعجبك هذا العمل ؟ دفن الموتى ! يراك الناس فتشيح وجوههم وتنقبض قلوبهم ، وقلما سلم عليك انسان أو آكلك الا سأل نفسه ، ألا تزال فى يده رائحة الجثث ؟

صمت قليلا ثم نظر الى وقال :

ــ ان لهذا العمل أسرارا لا تعرفها ، وقد أدركت بفضله أشياء كانت غائبة عنى ، أشياء ينبغى أن نفطن لها • اننا نولد لنا معدن خام فج ، وقد خلقت الدنيا لتصهره وتصقله ، فكيف لا تغبطنى على أننى لا أخرج من الدنيا ــ كما دخلتها ــ لا علم ولا تجربة •

لا أدرى لماذا وجف قلبى ؟ أأشفقت أن يكون قد أصابه مس من الجن ، أم لأنى خشيت أن يدلى الى بأسرار مزلزلة فقلت له متلعثما :

ــ أخبرنى أنا أيضا ، اننى صديقك ، واننى لا أزال ، كما تعهدنى ، متعطشا للعلم •

أمسك بيدى واجلسنى بجواره ثم التفت وقال يكاد يهمس فى أذنى :

ــ اذا هيىء نفسك لما سأقول : ان الانسان استطاع بعقله أن يقيس الأرض ، ويزنها ، وأن يعرف بعد الشمس ودورانها ، وحساب الأفلاك كلها ، واستطاع أن يتغلب على العناصر ، ويمازج بينها ، ويفك عقال ما تخبئه من قوى جبارة ، ولكنه يضرب فى الجبل ، ويهبط الى الوادى ، ويقف أمام البحر ، ويناجى النجوم ، ويتأمل الزهر ويهتز لمطلع الفجر ، وينقبض للغروب ، وهو فى كل هذا لا يظفر من الطبيعة بكلمة واحدة أو اشارة عابرة تدل على أنها تحس بأنه هنا !

ان حديثه مع الطبيعة منولوج ــ من جانب واحد ، هو ممثل فى مسرح ليس فيه فرد متفرج ! كان ينبغى له ازاء هذا الصمم أن يقنع بأنه كالنمل والنحل وسائر الحيوان والنبات ــ بل والجماد ــ مخلوقات متساوية ، تظهر وتختفى ، ويختلط بعضها ببعض فى عجينة واحدة ولكن كيف يقنع الانسان بالانمحاء ، وقد أتى بالمعجزات ونفذ الى الأسرار ؟ لا ترضى كبرياؤه الا أن يجد من الطبيعة ردا على كلامه يشعره بمقامه وهو ظالم فى التجنى عليها لأنه فى ــ حماقته ــ قد قصر نظرته على الحياة وحدها ، فهناك لحظة ، لحظة هائلة ، تهب فيها الطبيعة فى أتم قوتها وعنفوانها ، وتصيخ للانسان ، وتفهم نجواه ووجيعته ، فتفتح له ذراعيها وتضمه لصدرها ، وتغمره بقبلاتها ، شأن الأم الرءوم التى لا ولد لها غيره ، هى لحظة الدفن !

انظر الى هذا البشر الذى يسير أمامك ، انهم حين يموتون يعاد من جديد وزنهم ، فهذا الأكرش العملاق أتناوله بين يدى فاذا بى أحمل جسم طفل صغير ، رقيق العظام ، ضامر اللحم ، رخص الأطراف ، وهذا القزم النحيل أحمله فلا أقوى على السير وأتعثر به على سلم القبر ، انه أصبح كرة ضخمة ثقيلة ، اذا مخضتها حركتى أحسست بأننى أحمل على يدى البحر المحيط كله بهديره وأملاحه وعواصفه .

ولكنهم كلهم سواء فى اسراع الخطو ، هم الذين يدفعوننى ويسوقوننى دفعا وسوقا ، اسمع صرخاتهم جميعا : اسلمنى للأرض ، اسلمنى للأرض ، فاذا وسدتهم التراب كانت لحظة أرى الأرض تهتز وتموج ، سرت فيها رعشة المشتاق حين يضم حبيبه ! عين تكاد تنخلع من فرط اللهفة ، وفم جف يوشك أن ينشق من شدة الوله ، تعال ، تعال ، اننى أنتظرك منذ الأزل ! وأحس بجثة الميت تئن بالحنين ونشوة المتعة ، وتهبط السكينة على الأرض ، ويطبق اطمئنان الوسن جفنيها ، قد تندى فمها ورطبت شفتاها . وعرفت الجثة معنى الأمن والدعة والراحة والنجاة ، سيذوب كل منهما فى ضمة الآخر حتى لا أدرى هل الأرض بقية من هذه الجثة ، أم الجثة بقية من تراب !

ولكن اصبر معى ولا تتعجل ، لقد أدركت من طول خبرتى للمقابر أن فى هذه الضمة هى أيضا ، سابقا ومسبوقا ، فان الأرض

فى براءتها التى فطرها الله عليها يوم الخليقة تفتح للجثة صدرها كله ، وأقصى مدى لذراعيها ، وتنسى أن الانسان قد اكتسب فى الدنيا طبائع مستجدة ، لم تكن فى فطرته ، هى أقوى من غرائزه، مستعصية ، من الصعب قهرها ، فالميت لا يستسلم لضمة أمه الأرض الا شيئا فشيئا ، أول ما يزول عنه من هذه الطبائع هو الحقد وحب الانتقام ، ثم الطمع ، ثم الندم ، وآخر ما يفارقه هو الكبرياء، وهى تزول بعد أربعين يوما، حين تنخفض عظمة الأنف، عندئذ ، وعندئذ حسب ، تفنى شخصيته ويتم اللقاء بين الجثة والأرض ، وتتابع فناء هذه الطبائع يسمع له صوت كالنشيش ، وبعضها يتطاير كالهوام ، وبعضها يدب كالدود ، وبعضها يتبدد فى أبخرة وغازات عفنة .

وتنهد صاحب الحان ثم صمت ، بعد أن كاد صوته يصبح فحيحا .

انتى من المؤمنين بأن للعلم ، وان خرجت شبكته بما تكره كما خرجت من قبل بما تحب ، نشوة القوة وبهجتها ، فما بال صاحب الحان وهو يعتز بعلمه يكاد يتفطر قلبه من الحزن ؟

تركته هو أيضا لخالقه ، وهممت أن أقوم ولكنه أمسك يدى وأجلسنى من جديد بجانبه ، وقال وهو يشيح بوجهه عنى .

ـ شىء واحد لم أحسب حسابه ، يوم أن ماتت زوجتى اذ كان على أنا أن أدفنها ..

وخيم علينا الصمت وغاب كل منا عن دنياه ، ثم انتبهت والشمس فى أوج السماء ، فقمت دون أن أنبس ببنت شفة وعدت الى دارى •

ولذ لى ذلك اليوم أن أقلب أوراقى القديمة وأقرأ الرسائل التى بعث بها الى أصدقاء أعزاء خلال ثلاثين سنة ، وهممت أن أكتب لواحد منهم رسالة أضمنها وصيتى ، وما ينبغى أن يفعله بأوراقى بعد مماتى ، ولكننى عدلت عن ذلك كله وشغلت نفسى بقراءات لا علاقة لها ببلدنا وأهلنا وزماننا ، ولم الكتمان ؟ نعم قرأت كتابا مطولا عن الخفافيش وطبائعهم ، أحببت أن يعود الى هدوء النفس من قبل أن أخرج للجولة التى أضاعها على صاحب الحان بحديثه •

٥ - حياة جديدة

اننى لا آكاد أصدق عينى ، لقد دبت فى قريتنا حياة جديدة، كان أهلها من قبل مستغرقين فى نوم عميق ، ألفوا فيه الاستكانة والتوكل وقبول الضيم ، كلما تململوا رأوا القيد يزداد انطباقا عليهم . فوقر فى نفوسهم من فعل اليأس أن لا خير يرجى لهم ، بل ثبت لديهم ــ وهذا هو البلاء الأعظم ــ أن لا خير يرجى منهم، فلما لم يبق لهم هدف ، وضاعت ثقتهم فى أنفسهم وافتقدوا من يقيم العدل بينهم ، مالوا الى النهب ، شأن الجماعات المضطهدة المرهقة حين يختل الأمن ، وأصبح حلالا نهب أموال الجماعة ، حتى حفظتها ، ان أمسك بعضهم بقية من ضمير عن نهبها تهللت وجوههم بنشوة الاقتصاص اذا تركوا باهمالهم يد التلف والخراب

تعيش فيهــا ، وكم من مرة رأيت عاملا يتلف أدواته صائحا « فلنحترق ، ولينحرق البلد كله » .

ومن لم يصل الي أموال الجماعة ، نهب مال من هو أضعف منه ولم يكن دفاعهم عن أموالهم من النهب على يد من هو أقوى منهم حمية وأنفة وعصــيانا ، بل بالتدليس والتزوير والكذب والحلفان بالباطل ، ومما زاد النكبة أن المال قد اضطرب تداوله وأصبح فريسة مطاردة تتناهشها الكلاب ، أخذ يقل فى يد الناس شيئا فشيئا ، فعمت الفاقة ، وبعد أن كان على الجنيهات نزاعهم ، أصبح على القروش ، ثم على الملاليم .

وقد شعرت وأنا أجول فى القرية ودساكرها أن الناس قد انتبهوا من نومهم ، أيقظهم تولى الأستاذ مقاليد الأمور فى القرية واقامته للقانون بين الناس سواسية ولما لمسوه فيه من اخلاص للخير وانطباق العمل على النية ، أيقظهم أن الجبل الذى كان جاثما على صدورهم قد انزاح فجأة ، كما تنفجر الفقاعة .

لا أزعم أن القرية أصبحت تعيش فى رغد وسلام ، بل يكفى أن الناس جميعا أصبحوا يدركون أن هذا عهد جديد ، له مقاييس وأحكام ، لا يغتفر فيها النهب . ولا ينجو المذنب بغير عقاب وحبل الفساد غير ممدود ، وقد كان قلبى يتفطر على كثير من خيرة الناس ، مالوا للباطل ، لا خبثا من أنفسهم بل لانسياقهم كالعميان لما خدعهم ، من شيوعه وسلطانه ، فقد ارتد هؤلاء النفر الى

الرشد بغير تململ أو مشقة ، وكيف لا أغتبط لهم وقد أتيحت لهم النجاة ، وسلم لهم معدنهم الطيب ، وعفا الله عما سلف .

ولكن وقع اليقظة على بعض النفوس يجيء أحيانا كوقع المفاجأة ، وليس أشق على نفس الذى ألف الاستعباد من أن توهب له الحرية فجأة أو تلقى على كتفيه لأول مرة مسئولية تدبير أموره ، ويقال له أنت سيد نفسك ، دافع عن حقك ، وقم بواجبك ، انه كان يطالب بهذه الحقوق ، يؤمن أن كل بلائه راجع لحرمانه منها ويقول انها لو ردت اليه لتغير حاله فى غمضة طرف ، من الظلام الى النور ، فاذا واجه النور حين يعم عشيت عيناه .

فقد وجدت من أهل قريتنا من يحمد العهد الجديد ، ولكنه يلبسه كما يلبس ثوبا قشيبا لم تعرك بعد خشخشته ، ولا تلين بداخله حركات ذراعيه وساقيه ، فهو يمشى ولكنه يتعثر ، ويبتهج بما فاز ويضيق بجدته ، وقد يقارن أيضا بين قصور حركته فى الثوب القشيب وبين الراحة الموهومة فى الثوب القديم الممزق الذى خلعه وكان يكرهه أشد الكره .

لم أعجب حين وجدت هذه المعانى لا يوحى بها الى رجل متعلم ، بل فلاح كادح ، فالفلاحون هم الذين فاقت قفزتهم من أسفل الى أعلى قفزة غيرهم ، وكثير من هذا الغير قفز من أعلى الى أسفل .. لقيت هذا الفلاح عند الساقية فأسرع ودعانى

لمشاركته طعامه « ما أجمل كرم أهل بلدنا ! » ولكنه لم يكد يستريح لى حتى بدأ يقول :

ــ ان مالك الأرض ــ لعنه الله ــ قد كف يده عن مساعدتى منذ تطبيق قانون الايجارات الجديد « كأنه يتعمد أذيتى ، أو أن يثبت لى أننى لولاه خائب لا أفلح » • فقد تسلمت هذه الأرض بالايجار الجديد ولكن أين البذور والسماد وهذا المال القليل الذى لا بد منه لجنى المحصول ؟ أصبحت ينبغى على أن أسعى لتوفير هذا كله ، واننى أجده ولكن بعد سعى ومشقة ، كنت لا أعرفهما من قبل ، اذ كان المالك يتولى هذا العمل •

هل سمعت ؟ ان بعض الفلاحين آثروا الاتفاق سرا مع الملاك من وراء ظهر المجلس على زرع الأرض بالايجار القديم المرتفع ، طمعا منهم فى نزع الأرض من يد منافسيهم ، ولأنهم يضمنون مساعدة المالك •

فملأنى الغيظ ، ولكنى كتمته وقلت له :

ــ يا أخى ، أيرضيك أنت هذا ؟ يعطى لك جوهرة فترميها بيديك فى الوحل ؟ أنتم أكثر النــاس انتفــاعا بخيرات العهد الجديد ، كل فلاح الآن سلطان نفسه ، فليكن على الأقل رجلا يعرف كيف يدبر أموره بحكمة وعقل ، لا تكربه مشقة أو جهد ، أم تريدون أن تعيشوا عيالا فى الذل ، عيالا فى الحرية ؟

ولما فرغ الفلاح من شكايته الأولى ، أعقبها بأخرى ، وقال :

ـ ومتى ننعم بالرخاء الموعود ؟ حتى آكل مثل الحكام لحما كل يوم لا مرة كل أسبوعين ؟

فأجبته وأنا أهم بالقيام :

ـ هذه مسألة في يدك ، والدنيا أمامك ـ حين تحسن زرع الأرض ، فيجود محصولها ، وتحسن زرع الخضر والفاكهة ، وتربية الدواجن ، والنحل ، وتحسن نسج الصوف ، فليت كان سؤالك اذا ، متى أتعلم مثلهم ؟

وأخذت أفكر وأنا عائد لداري في أعوان الأستاذ الذين التفوا به يوم أن ألقى خطبته الأولى ، أغلب أعضـاء المجلس القروى منهم ، كلهم من الشبان كنا نراهم من قبل فلا نظن أنهم على شيء ، أو أنهم قادرون على النهوض بعبء كبير يحتاج الى سلامة الجسم والعقل معا ، ولعل بعض الشيوخ ممن يعتزون بتجربتهم كانوا لا يأبهون بهم . فلما برزوا رأيناهم قد صمدوا للعبء ، وبذلوا من الجهد ما تنوء به الجبال . لم يطلبوا مغنما لأنفسهم ، بل جزاؤهم أنهم يخدمون عشيرتهم ما وسعتهم الطاقة لقد مر بقريتنا عهود متتالية لا يدير أمورها الا الشيوخ ، فكنا نسير على مهل ، مؤثرين الراحة ، وترك القديم على قدمه . برامجنا كلها تطور بطيء ، اذ كنا نخشى الطفرة ـ ولا جرم أنه

من الخير أن يتولى أمر القرية زمرة من الشبان ، حتى يكسبوا لنا ما ضاع من الوقت ، حتى يهدوا ويبنوا •

وعدت الى دارى متعبا ، ولكننى فرضت على نفسى أن أخرج مبكرا فى الغد لأدور على أصدقائى ، وقد رابنى أن أحدا منهم لم يأت لزيارتى •

٦ - القزم

لم أتعب فى البحث عن القزم ، فما كدت أخرج من دارى مبكرا وأسير خطوتين حتى رأيته قادما صوبى ، يمشى بخطوة نشطة فلما انتهينا من السلامات والعناق قلت له :

ـ أين تذهب فى هذه الساعة ؟ كان العهد بك أنك لاتخرج لعملك الا عند إقتراب الظهر .

ـ كان هذا من قبل ، أما اليوم فانى أحرص على أن أخرج من دارى فى الصباح المبكر .

ـ وهل هذا سر تورد خديك ؟

ـ أهم سبب أن المولى تاب على ولم أذق الخمر منذ اغلاق الحان .

دققت النظر اليه ، فوجدته فى ثيابه القديمة التى أعرفها ـ بل رأيت حلته لامعة ، وقميصه ممزقا مرفوفا ، وحذاءه باليا .

ـ أين الأناقة ؟ كنا نراك كل يوم فى حلة جديدة ، وربطة عنق غير التى تلبسها بالأمس .

ـ اننى الآن مشغول بما هو أهم ، انظر ، سأشرح لك الأمر .

وأخرج من جيبه ورقة وقلما ورسم لى عليها موقع أرضه وسط جيرانه وقال :

ـ انظر ، هذه هى الأرض التى أملكها ، هل ترى بعدها عن المصرف ، هذا هو سبب رداءة تربتها وقلة غلتها ، وهذه الأرض التى تفصلنى عن المصرف ، واقفة لى كالعظمة فى الزور ، كانت فى الأصل من أملاكنا ، فأضاعها آباؤنا بحماقتهم وسفاهتهم وكانت أرضنا مربعة الشكل ، هى خير أراضى القرية فأنا الآن لا أفكر الا فى استرداد هذه الأرض ، وأن أرى أرضنا عادت مربعة كما كانت .. كأن الجزء الناقص مقطوع من قلبى .. اذا عادت لى سأكون أسعد خلق الله . ومن أجل ذلك قررت ـ أنا وزوجى ـ أن نوفر كل قرش وكل مليم لشراء هذه الأرض .

انني لم أنتبه لحماقتي الا أخيرا ، كنت لا أفرق بين الجنيه والقرش ، يدي مخروقة ، يسيب منها المال مهما كثر ، بعثرت شمالا ويمينا ، كالمعتوه المأفون ، المال نعمة ، ينبغي أن تصونها وتعرف قدرها ، والمال الذي يصرف عبثا ضاع منك الى الأبد ، ولا يغني به من أخذه ، لأنه جاءه بغير جهد ولا مشقة ، فكما جاءه طائرا يفارقه طائرا ، فما انتفعت ولا نفعت ، أنت لا تدرك مبلغ لذتي حين أمد يدي في جيبي فأجد النقود فيه ، وأحس بها تزداد يوما بعد يوم .

ـ وزوجك ؟ ما خبرها ؟ وماذا تفعل بفقرائها وأيتامها .

ـ لقد انتهى بيننا ، منذ اغلاق الحان ، كل نزاع وخلاف وتوحدت أهدافنا وخططنا .. وهي الآن تضع كل ايرادها في صندوق لا يخرج منه قرش واحد .

ان الاحسان بئر عميق لا يعرف له قرار ، ما الفائدة من أن تعين انسانا اليوم بقرش أو حتى بجنيه فماذا يكون شأنه غدا ؟ هل تصرف عليه طول العمر ؟ واذا وجد محسنا غيرك في غد فلماذا لا تتركه له اليوم ، ما الفائدة من مساعدة واحد أو اثنين ، أو حتى عشرة أو عشرين ، وهناك آلاف غيرهم من البؤساء . فما معنى أن تساعد انسانا وتحرم آخر .. هل أنت مقسم الأرزاق ؟ ولو طال الحال بزوجي لافتقرت هي ولم يغن من مالها أحد ، كفاها ما فعلت

هى أيضا من تبديد مالها ، تحسب بذلك انها تردنى الى الرشد ، وها قد عاد الى صوابى بفضل اغلاق الحان والحمد لله ..

لقد طردنا الخادم وأصبحت زوجى هى التى تطبخ وتغسل وتكنس ، فلم يبق لها وقت للخروج من الدار ، وهى لا تغضب اذا لم يزرنا أحد من أصدقائنا ومعارفنا . قد أوصدنا الباب علينا، ونحن نعيش سعداء ارتقابا لليوم الذى نحلم به ، يوم تربيع الأرض .

ومد يده ليصافحنى ، يريد الانطلاق لعمله ، ولكنه لم يفارقنى الا بعد أن قال لى :

ــ هل معك لفافة تبغ لى ؟ اننى نسيت بسبب اسراعى أن أشترى حاجتى اليوم .

٧ ـ زوج العرجاء

أصاب المجلس القروى عصفورين بحجر واحد ، فمن المبادىء التى التزمها وصلح عليها حالنا بعد فساده وضع الرجل فى المنصب ولياقة المنصب له • ليس هذا الرجل ذاته ، فهو آخر من يصلح لاصـــدار حكم فى قضيته • وقديما قالوا : اعرف نفســك ، لا يسألون بها تحقيق ما يطلبون ، بل هو التدليل بأبلغ مثال على عجائب النفس البشرية التى تضمها بين جنبيك ويستعصى عليك فهمها ــ وعلى الشىء يبدو سهلا يسيرا وهو فى الحقيقة شاق بعيد المنال • فليس هناك شىء أبعد عن طاقة الانسان من أن يعرف نفسه ، والرجل ليس الرجل كما يرى نفسه ، بل الرجل كما يراه الناس ، فاذا انطبق أحد الرجلين على الآخر كانت السعادة للأنوف والمهانة للذليل ، أما اذا افترق أحد الرجلين عن الآخر ،

فهو العذاب ، يزداد بازدياد الشقة بين الرجلين ، للطامع بحق ، وهى الغفلة للطامع بغير حق ، والتلذذ بالخديعة والهزء بالناس للمحتال الأفاق الذى يصونه ذكاؤه من عمى البصيرة .

فكان من الخير أن لا يأبه المجلس القروى فى شغل المناصب الا برأيه هو ، فان هذا أدعى الى ايجاد مستوى متسق للموظفين، بعد أن كان فى الماضى مضطربا بين الغلو فى الارتفاع والغلو فى الهبوط . قد يقال ان المجلس — وهو بشر — يصيب أحيانا ويخطىء أخرى ، ولكنه أثبت أنه يعدل عن خطئه حين يتبين له ، ويجرب مرة وأخرى الى أن يظفر بحاجته .

والمبدأ الثانى ، أن البطالة خلل فى كيان المجتمع — ينبغى أن يقضى عليه — أيا كانت الوسيلة .

فلما اتسعت أعمال المجلس القروى ، كان لا مفر له من مخزن كبير ، تودع فيه الأدوات ومواد البناء ، وتبيتت فيه عربات الكنس والرش والمخزن مطلوب له أمين يتولى أموره ، فهذا عمل يحتاج الى رجل له خبرة فى التجارة والسباكة والبرادة فاذا أضفت الى ذلك أن زوج العرجاء عاطل تبينت لماذا اختاره المجلس ليكون أمين المخزن .

علمت هذا عند عودتى للقرية فسعيت الى زوج العرجاء فى مكان عمله . فرأيته جالسا فى ركن من مخزن عميق مظلم مزدحم

أمام مكتب عليه أوراق وملفات تكاد تبلغ سقفه الواطىء ، ورأيته هو أيضا يرتدى بذلة صفراء فوق قميص له ربطة عنق كذيل الفأر •

سألته أولا عن زوجه فأجابنى وهو يضحك :

ـ انها بخير ، وهى دائمة السؤال عنك ، ولا تزال تعمل كما تعهدها ، ولكن قصادها أصبحوا من العمال ، فقد كثروا الآن فى قريتنا ، وهى بهذا التحول أسعد وأهنأ لأنها كما تعلم تحب الفقراء أمثالنا، لسذاجتهم وطيبتهم، ولأنهم أكثر من غيرهم نسلا، فهى تحب أن تأتيها امرأة ووراءها ثلاثة أولاد •• وهى تضحك معهم كثيرا •

ثم استأذننى لحظة وتناول دفترا كبيرا وفتحه ليقيد فيه خروج عربة يد ، وأخذ يسألنى وهو لا يدير نحوى رأسه ولا ينتظر منى جوابا :

ـ هل كان البحر هائجا أم ساكنا ؟ وهل رأيت أنواعا غريبة من السمك ؟ •• لقد وضع المجلس القروى لهذا المخزن نظاما دقيقا ، فانه لو لم يفعل لاختل أمره واضطرب ، وأصبحنا لا ندرى ما بقى وما تلف وما خرج وما دخل ، والطيور ؟ أى الأنواع رأيتها ؟ انظر الى هذه الاستمارات هى معدة لأن يقيد فيها كل شاردة وواردة ، هل الحقول هناك أجمل من حقولنا كما

يقولون ؟ .. فاذا جئت صباحا قمت بجرد المخزن وأثبت محتوياته فى هذا الدفتر ، فاذا ظهر عجز حررت استمارة من هذا النوع ، واذا ظهرت زيادة حررت بها استمارة من ذلك النوع . وهذا الدفتر أقيد فيه أسماء العمال وساعة حضورهم وساعة انصرافهم للعمل وعودتهم منه . وهذا لاثبات حال العربات واذا علمت أننى مكلف أيضا بتصليح هذه العربات وترميمها أدركت كم ساعة اشتغل من الصباح للمساء . ولكنى أحمد الله ، وأريد أن أكون جديرا بثقة المجلس القروى ، وأن أبيض وجهه ووجهى ، لقد طال عبثى فى الماضى ، وآن لى أن أعمل بجد كما يعمل كل الناس اليوم .

ــ وماذا تفعل يوم الجمعة ؟

ــ أقضيه فى الفراش ، لأستجم .

ولما صافحته وأنا أهم بالانصراف ، وجدت يده هى هى ، قطعة من قلبه ، وعينه هى هى ، صفاء واشراقا .

٨ - القصاب

تجمعت عندى من هنا وهنـاك منذ عودتى للقرية أنباء القصاب وما جرى له بعد سفرى ، فعلمت أن كثيرا من الشكاوى الغفل من الامضاء قدمت فى حقه الى المجلس القروى ، وقد صحب انشاء المجلس ازدهار هذه الشكاوى من مجهولين ، وهى حار المجلس لا يدرى ماذا يفعل فيها . لو صرف وقته لتحقيقها كلها لما فرغ لعمل آخر ، ولو أهملها لقيل انه قعد عن رفع المظالم، ورضى أن يظل المجرمون مطلقى السراح ، ولو بحث بعضها دون بعض لاتهم بالتحيز . وكلف المجلس بعض أعضائه للنظر فى هذه الشكاوى ، فتبين لهم كذب أكثرها ، وضاعت الشكاوى المقدمة ضد القصاب فى هذا السيل المنهمر ولم يسأله أحد عن شىء ،

ولكن الناس لم يتركوه ، بل كانوا يطوفون بداره ودكانه ، ويشيرون اليه بالسبابة ، وهو صابر لا يفعل شيئا ، وسمع ذات يوم أنهم ضربوا صبى الطحان حتى كاد يتلف .

وانخطف لون السمراء وهزل بدنها . وكانت تأوى الى ركن من حجرتها ، جاثية على ركبتها ، مطأطئة الرأس ، طول النهار ، لا تنقطع عن التفكير . ماذا فعلت بنفسها ؟ وماذا فعلت بزوجها ؟ وماذا فعلت بصبى الطحان ؟ كل هذا بسببها هى . كيف الخلاص وماذا تفعل ؟ انها لن تستطيع أن تخرج للطريق بعد ذلك ، اذا لم يبق أمامها الا الهرب مرة أخرى ، ولكن ماذا تفعل بأولادها .

وقامت من فراشها ذات ليلة واتجهت الىفراش أولادها ، وقبلتهم واحدا واحدا ، وجمعت فى ربطة بعض ثيابهم اللصيقة بلحمهم ، ثم فتحت الباب خرجت الى الليل ..

وفى الصباح علمت القرية نبأ هروبها مع صبى الطحان ، وأنها تركت أولادها للقصاب ، فقال بعض الناس : عادت ريمة لعادتها القديمة وقال آخرون : سحقا لها ، انها كشواذ الطير تبيض فى أعشاش غيرها ، أتضحى بأولادها من أجل هواها ؟ ولكنهم لم يروها وهى تقبل أولادها ، ولم يروها وهى لا تأكل فى تجوالها مع صبى الطحان سعيا للرزق من بلد الى بلد لقمة دون أن تبللها بدموعها ، ولم يدهش أبناء القرية حين رأوا القصاب يسكت عنهم ويطيل تردده على المسجد لا يترك فرضا .

ولم أشأ أن أقابله فى دكانه ، وفضلت أن انتظره على باب المسجد حتى رأيته خارجا ، قد أضاء وجهه واستراحت قسماته ، فتقدمت اليه ، وسلمت عليه ، فوضع ذراعه فى ذراعى وقال : تعال نسير معا على شاطىء الترعة •

ولما سرنا قليلا أنشأ يقول :

ـ عجبت لرجل يتـــرك الهم ينخر قلبه ، والحزن يضنى فؤاده ، وشهوة الانتقام تقض مضاجعه ، وباب الصلاة مفتوح أمامه ، لقد كدت أتلف من شدة الغيظ ، لولا أن هدانى الله ، وحبب الى الصلاة ، وهى كل ما بقى لى الآن •• فانى لا أذكر أيام الحان الا اعترانى الخجل ، وحمدت الله على اغلاقها •

وقد شعرت أول الأمر بشد وجذب بين الصلاة وسموم النفس فكنت أنتزع بجهد عسير من الغيوم المحيطة بى لحظات مشرقة أقف فيها أصلى ، حتى اذا فرغت صلاتى أطبقت على الغيوم من جديد ، الى أن يحين موعد الصلاة التالية ، وهكذا ••

وكنت أتمتم بالآيات كالببغاء ، لا يكاد يبين لفظى ، تنكشف أمامى معانيها دون أن تصل الى ذهنى وقلبى ، ولكن صبرت وثابرت ، وأخذت أتلو الآيات على مهل ، راشفا معناها ، فتنزل على قلبى بردا وسلاما واتسعت اللحظات المشرقة وتضاءلت معها سموم النفس شيئا فشيئا ، فقد كنت أحمل نفسى قسرا فى لحظات الصلاة ،

على الرضا بحـــكم الله ، والتوكل عليه ، والالتجـاء اليه : والاستعاذة به ، فتقنع نفسى ، أو تبدو لى قانعة ، ثم يتبخر كل هذا فور أن أخرج للناس واضطرب بينهم •

ولكن الايمان مع الصبر رسخ فى قلبى قليلا قليلا ، وأصبح ومى كله صلاة صامتة ، تقطعها صلوات ناطقة يراها الناس ، فأنا الآن هادىء النفس ، والحمد لله ، مطمئن الضمير ، وأصبحت أجد لذة لم أعهدها من قبل فى طعامى وشرابى ، اننى الآن كقطعة من المغناطيس الذى لا يلقط من الناس الا معدنهم الطيب أما الخبث فهى عنه مزورة ، وقد رأيت الكثيرين لا ينفعهم ايمانهم حين يعاملون الناس فيظنون فيهم الشر بادىء ذى بد ، أو ان رأوا فيهم شرا وخيرا غلب الشر على عيونهم أو بقيت ذكراه فى مؤخرة رؤوسهم وهم يعاملون الجانب الطيب من الناس ، فلا تزال قلوبهم منقبضة ، والقول بين بين ، لا هو خداع ولا هو صدق • اذا لم يأتوا بمعصية فما كسبوا ثوابا ، وكان ايمانهم كالنميمة ، توضع على القلب ، وهى ليست منه ، ولكنى استطعت أن أغمض عينى عن الشرور جميعها ، وحبست نفسى فى دائرة الخير ، فوجدت فيها ، وان قل مداها ، سعة تنيلنى كل ما أريد ، ولا يفوتنى شىء أتأسى عليه • ولو أصاخ صاحب الحان سمعه حين يحملنى بين يديه لعجب لتهللى وتسبيحى •• عد بنا فقد حان موعد الصلاة •

تركته على باب المسجد ، وسرت الى الدار ، وأنا أتطلع تارة للناس وتارة للسماء •

٩ - الفتى الفنان

كنت أحسب أننى لا أجد الفتى الفنان فى القرية عند عودتى اليها • وظننته قد سافر للعاصمة هربا من وجه أبيه كما قال لنا ذات يوم فى الحان ، ولكن لم أعجب حين علمت أنه لم يبارح القرية فقد مضى عهد إنشغال الفرد بنفسه ، فنحن الآن فى عهد مصلحة المجتمع قبل مصلحة الفرد •

لقيته فى متجر أبيه ، ووجدته جالسا على مقعد قد أحنى ظهره ليصل وجهه الى وجه صبى فى السنة الأولى من العمر ، واقف أمامه وهو يلاعبه ، ويضع فى فمه قطعة من الحلوى ، لحظة ثم يخطفها ثم يضعها فى فمه من جديد ، وهو يضحك ملء شدقيه • ويندلق على وجهه البشر والسعادة والمرح ، خلت أننى

أرى عصفورا يزق أفراخه وهو مشهد أحب أن أراه ، وأن أتأمل منقار الأم ــ ضئيل بالنسبة لجسمها ــ يندس برفق ، على غلظه، فى منقار طالب منشق ، يبدو كأنه أكبر من منقارها ، اذا قيس الى جسم الفرخ ، فاذا رأيت هذا المشهد لا أنساه سريعا . فلما وجدنى الفتى أمامه هب واقفا ورحب بى وقال :

ــ أقدم لك ولى العهد ! رزقنى الله به منذ سنة ، فأصبح هو كل دنياى . لو رأيت ابتسامته وسمعت ضحكه وعجيب نطقه ومنطقه لقضيت معه النهار بأكمله وأنت لا تسأم ولا تمل . ولو رأيت أيضا كيف فرح أبى به ، أصر يوم مولده على أن يضيف اسمى وراء اسمه على لافتة المتجر ، ولعلك رأيتها وأنت قادم ، وانى أرى من وراء الغيب اسم ابنى هذا يجىء وراء اسمى ذات يوم .

أتعرف ! أن الانسان لا يحس بوجوده الا اذا رزق الولد ، انه من قبل كالمطر ينحدر على التلول ويتفرق فى الوديان ولا تعلو قامته فى مكان رغم غزارته ، ثم انظر الى الولد حين يعانق أباه تجد ذراعيه كالضفتين تحتجزان هذا الماء المضاع فيصبح نهرا له حياة معلومة ومجرى مرسوم ومبدأ وغاية .

فقلت له بصوت خافت ، وأنا لا أسامح نفسى :

ــ الموسيقى وألحانك ؟

فأجابنى بعينين ضاحكتين :

ـ لقد فتح لى العهد الجديد فى القرية آفاقا أخرى وهدانى للواجب والصواب اذ وجدتنى ذات يوم أقول لنفسى : أنت أسير الموسيقى فلماذا لا تكسر القيد ، وتجعلها أسيرتك ؟ انك صريع قوة طاغية تنهش قلبك كالعقاب ، ولا تدرى كيف ينتهى بك الحـال • ولو سرت فى هـذا الدرب الى غايته للحقت بزمرة الموسيقيين الذين تنتهى حياتهم بالانتحار أو الجنون • فأحسست عندئذ أننى كنت أسير على غير هدى ، حتى وقفت على حافة الهاوية ، ورددت نفسى أما اليوم فأنا غاو ، كل موسيقى يعزف لى ، أختار ما أشاء ، حين أشاء • لا عذاب ، ولا جرى المخبول وراء لحن لم يولد ، ليلة اثر ليلة ، لا يغمض لى فيها جفن ، ولا ينقطع تجوالى فى الطرقات والحقول والحانات • أصبحت الآن أنا السيد لا المسود ، كنت أعيش فى الموسيقى ونفسى كالبحر الخضم الثائر ، أما الآن فأنا أعيش فى الموسيقى ونفسى كالبحيرة الهادئة ، ولعل رضائى بأن أكون غاويا هو الذى مهد لى السبيل للتقرب من ملحنين كنت أتحاشاهم خشية أن أقع تحت تأثيرهم ، وأتهم بتقليدهم ، وملحنين آخـرين كنت أزور عنهم وأحذفهم ـ يا للغرور ـ من قائمة الفنانين لأنهم من غير مذهبى ، أما الآن فكلهم أصدقائى ، فى كل منهم ناحية من جمال ، ولكن هل تريد أن تعرف ألذ نغمة عندى ، هى ضحكة ابنى وأنا أوقظه فى الصباح وأقبله وأزغزغه •

تركته وأنا أقول : هؤلاء الفنانون ! ان الحياة تبتسم لهم دائما على أى جنب رقدوا ، لأن الفن هو قبل كل شىء عنوان غنى النفس ، واتصالها الوثيق بالكون والحياة • ولكن لن يخفف من حسرة عارفيه على فقدان هذا البلبل الصداح أن يعلموا أنه نجا بنفسه ، فجمهور الفنان لا يعنى الا بانتاجه ، يطلب المزيد والمزيد منه ، ولا يهمه هل تحطمت نفسه أم لم تتحطم •

١٠ ـ لقاء الأستاذ

لما عدت الى دارى وجدت رسالة من الأستاذ يدعونى فيها لزيارته فى ساعة معينة من الغد ، فحمدت الله أن مقابلتى له ستتم تلبية لطلبه لأننى آنف أن أندس وسط المتزاحمين على بابه ولو كان قصدى أن أسلم عليه بعد عودتى من السفر الطويل ، وقد يحسبنى الناس أننى اتملقه ، وليس لى مطلب عنده ٠

ولم أستطع أن أمنع نفسى من معاناة الحيرة فى فهم سبب دعوته لى ، وكان أقرب الاحتمالات الى ذهنى أنه يريد أن يسألنى عن مشاهداتى فى رحلتى الأخيرة ٠

ودخلت عليه فوجدت بعض أعوانه يحيطون به احاطة القيد بالمعصم ٠ يعرضون عليه فى اهتمام بالغ أوراقا كثيرة ، أشار الى

أن أنتظر قليلا حتى يفرغ منهم • أكثر هذه الأوراق يتعلق بمسائل ليست بذات خطر ، وكان ينبغى أن لا تصل الى الأستاذ فيضيع فى معالجتها وقته وذخر أعصابه وذهنه ، وتذكرت كيف أنه جعل من ضمن برامجه حين بدأ عهده فى القرية أن يختار لكل عمل من يصلح له ، فيوليه ثقته ويحمله مسئولية انجاز هذا العمل على خير وجه دون حاجة للرجوع اليه • فما الذى جرى بين الأمس واليوم ؟

وشغلت نفسى بالتطلع الى الأستاذ وتأملت ابتسامته التى لا تفارقه كعهدى به ، لقد كانت من قبل وليدة العزم على الصمود للجهد الجبار والأعباء الجسام ، هى سفير قلب كل مطمعه أن يهب نفسه ، أما اليوم فقد خال لى أنها أصبحت مظهر فهم عميق للناس ومنازعهم وأهوائهم وأطماعهم ، هى وليدة انتباه لهذا الخط الدقيق ــ يكاد لا يرى ــ يفصل بين الخير والشر ، فلا عجب أن خالط هذه الابتسامة شىء من المرارة ورأيت عينيه تبتسمان مثل فمه ، ومن تحت الابتسامة شىء من الملل كأنه يفهم حديث كل قادم من قبل أن ينطق به ، ومع ذلك ففرض عليه أن ينصت له من أوله لآخره انصات المفاجأة به •

وجمع الأعوان أوراقهم وهموا بالخروج فاذا بالباب يفتح ويعلن علينا أن وفدا من أهالى القرية قد جاءوا لمقابلة الأستاذ، وأن لهذا الوفد رئيسا هو الذى جمعهم وساقهم • ودخل الرئيس

يخب فى ثوبه المقلم بالأحمر والأخضر كريش الديك . هل عرفته ؟ انه واعظ القرية ؟ وسلم وحيا ، وتقدم وتخلف ، وانحنى وقام ثم صف الوفد من خلفه بحركات سريعة مطاعة من كفه فتقدم الأهم على المهم ، تنحنح وقال بصوت جهورى مخاطبا الأستاذ ؛ ملتفتا الينا جميعا :

« نعم العمل عملك . هكذا تكون الحكمة والسياسة وبعد النظر كأنك ترى من وراء الغيب ! وان هذه القرية لم تسعد الا فى عهدك الزاهر ، فأنت الذى تدرأ عنها الأخطار والمتاعب ، عهدك كله خير وبركة ؛ لا حرمنا الله منك . اننا لولاك لا نساوى شيئا، أدعو الله فى كل ركعة أن يطيل عمرك ويوطد مجدك » .

وأحسن الأستاذ استقبال الوفد ، وشكرهم وهو يحدق فى وجه كل واحد منهم كأنما يحدثه من أعماق قلبه ويريد أن يوقظ فيه نائما وأجاب على خطبة الواعظ بكلمة قال فيها ان كل شيء سيرتد للفساد اذا لم يحسن كل منهم الانتفاع بالاصلاحات التى تمت فى القرية والدفاع عنها كأنه هو بالذات صانعها والمنتفع بها.

وانصرف الوفد وعاد الأستاذ الى مقعده واستدار نحوى وان رأيت نظرته تتخطانى كأنها تنظر من ورائى الى شيء بعيد ، ومع أننى كنت قد عقدت العزم على أن لا أبدأه الكلام وأن أنتظر فأرى ما سيقوله لى الا أننى وجدت نفسى بالرغم منى أقول له
ــ والغيظ هو الذى حل عقدة لسانى :

ـ يخيل الى أننى سمعت من قبل كلاما لا يماثل فحسب بل يطابق ما سمعته اليوم كلمة كلمة ، ويخيل الى أيضا أن قائله هو الواعظ نفسه وأنه قاله فى مدح عهد ولى وانقضى ..

فافتر ثغر الأستاذ عن ابتسامة متهللة وقال :

ـ أتحسبنى مغفلا ؟ أتظن أننى آكل من هذا الهراء . نعم اننى أعلم أن الواعظ قال مثل هـذا الكلام لمن سبقنى . وليس هو وحده بل غيره كثيرون .

ـ ولماذا تسكت عنهم ، فيظن بعض الناس أن هذا الكلام ينطلى عليك .

ـ اننى لا أحب أن أغش الناس أو أخدعهم. فقد أصل بعد مشقة الى القضاء على التملق الناطق ولكن كيف يشعر الناس بأننى سأظل مع ذلك محاطا بأنواع لا حصر لها من التملق الصامت .. أهل الخبرة الذين لا يفصحون بآرائهم خشية اغضابى متملقون ، ومن يشد على يدى كأنه يقول لى : أنت بطل ويمكنك الاعتماد على ، متملق ، ومن يقذف فى وجهى فى كل مناسبة بأنه لا يتملقنى متملق .. فالمسألة كما أصورها لنفسى ، هى هل كلام الواعظ وأمثاله يؤثر فى أم لا يؤثر . وهل يجعلنى أعدل عن قرار اتخذته أم أن أحابى انسانا على حساب انسان ! كلا !

فصمودى أمام هذا النفاق هو العلاج العملى الوحيد فى نظرى لاسقاط قيمته بين الناس ..

ثم صمت الأستاذ قليلا وقال لى وهو يبتسم :

ـ وأنت ؟ قد بلغنى خبر جولاتك فى القرية ودساكرها وحديثك مع الكنـاس وجندى المطافىء والفلاح وأصـدقائك السابقين من رواد الحان ، بل بلغنى أيضا أنك تكتب مذكرات ، وقد اطلعت على بعض نصوصها ..

لا شك أننى فوجئت بهذا الكلام وحرت كيف أقول ، لقد كنت مترددا بين العجب كيف وصلت أنباء كل حركاتى للاستاذ ، بل كيف وصلت اليه أوراقى ، وبين الشعور بالضيق حين وجدت نفسى فجأة مكشوف الستر بعد أن كنت أحسب اننى أسير فى الدنيا فى مأمن من الرقباء .

ولزمت الصمت برهة ثم قلت له بهدوء :

ـ لا أظن أن الحقيقة قد بلغتك بغير زيادة وتهويل وتحريف ولكنى واثق أنك لسابق علمك بأسرار أخرى ، وكثرة معاناتك لأمثال هذه التبليغات قد استخلصت لنفسك الصدق والصواب والنفع من وسط قشور الكذب والضلال والغثاثة .

ـ ماذا ؟ تحسبنى كنت لا أعلم ما سيقوله لك هؤلاء الناس ولا بما سيحدث لأصدقائك رواد الحان ؟ أصبح لكل انسان

رأي وهذا خير وان حسـبه الغافل بلبلة ، ونحن نفتح صفحة جديده . ولا نرفع الصفحة السابقة بخطفة واحدة فليس هذا مما تحتمله دنيانا ، فلا مفر من آن يسقط شيء من ظل الصفحة السابقة على الصفحة الجديدة . ولكن سيأتى وقت قريب تنقشع فيه كل الظلال ، تحسبنى لم أتألم لما حدث لبعض الناس من جراء تنفيذ برامجى ! اذا أنت لا تعرفنى ! ولكنى لا أعامل الأفراد ، بل أهل القرية كلهم ، وقد يسقط بعض الأشخاص صرعى عن شمال وعن يمين ولو وقفت أرثى لهم لما سار الركب أبدا .. ثم انتظر ، أن الحياة عجلة لأننى عن الدوران ، وستعود فتلتقط هؤلاء الساقطين على هيئة جديدة ، كما شاهدت أنت بنفسك . فماذا تريدنى أن أفعل . وكيف تختتم مذكراتك ؟

كان قلبه هو الذى يتكلم ، الصراحة رائده ، والحق مطلبه، فوجدت الحجرة كلها كأنما انعزلت عن ضوضاء العالم وارتفعت بنا عن الأرض لنعيش فى سماء ذات أضواء مشعشعة صافية . انفك عقال لسانى ووجدتنى أقول له بصوت هامس . وأنا أعجب كيف يصدر منى هذا الكلام بغير عناء مرتبا كأنما انطوت عليه نفسى زمنـا طويلا على غير علم منى ، فلما آن الآوان نطقت الشفتان :

ــ سأقول لك كلاما لعلك تدهش له وتعجب . ان محبتى للقرية هى التى جعلتنى لا أنقطع من التفكير فيك لحظة واحدة

لا بليل أو بنهار ، ان أخبارك لم تصلني كلها ، وقد انقطعت عن القرية زمنا طويلا ، ولم أعد اليها الا منذ قليل ولم أقابلك من سابق الامرة واحدة ــ ومع ذلك فان نفسى تسجل كابرة البوصلة كل هزاتك وتحولاتك ، ما أظن أن مرت بك مشقة أو أجهدك ضيق الا أحسست به .. لقد جئت مفتح الذهن واليد والقلب ، حسبت قبل الاقدام فوجدت كل شيء سهلا ، ولكنك لم تكد تضع فى العمل حتى رأيت مسائل القرية كمنازلها متساندة وكلها متداعية ، اذا سقط منها واحد تساقطت جميعا من ورائه ، فضربت ضربتك الأولى ، التى لم يكن منها مفر والتى كسبت من أجلها الحمد بين الناس والثواب والعاقبة عند الله ، سارعت فحجزت بين ذراعيك أقصى ما تستطيع لتحميه من التداعى وراء أكبر نصب يسقط ، وكان يحز فى نفسك أن من حول ذراعيك مسافة أخرى تساقطت معالمها هى أيضا ولعل بعضها كان يمكن اصلاحه ولعل بعضها كان ينفعك ولكن لم يكن مفر من أن تتركهم يتساقطون لأنك فى حاجة الى الحيز الذى خلفوه لتعيد من جديد ترتيب ما ضمته ذراعاك فى حرية وسعة .

وكان لا بد لك أن تنسى الذى حدث لتفرغ لما هو قادم وان تألمت من أن هذا النسيان قد يبدو لبعض الناس فى صورة القسوة وغلظ القلب .

ثم لم تكد تبدأ فى علاج أول مسألة حتى رأيتها مرتبطة

بأخرى ، وهذه بثالثة ، وتلك برابعه وهكذا . لو اقتصرت على علاج أولى المسائل لقيل انك لم تفعل شيئا ، ولو عالجت المسائل جميعها لما استطعت أو قيل عنك انك تخدع الناس ، فحرت كيف تصل الى الوسط بين الطرفين ورأيتك تتلمس طريقك ، وكان قلبى معك .

وعلقت أملك على أن أثر الجهد المبذول نوعان : مباشر يقاس بقدر الجهد ، وثانيهما غير مباشر وزائد عن قدر الجهد ، يأتى من أن بجانب هذا الجهد جهودا أخرى مبذولة لا مفر من أن تتفاعل فيما بينها ، فكما أن البناء يتداعى بعضه لبعض ، كذلك يقيم بعضه بعضا ، وكلما زادت الآثار غير المباشرة استطعت أن تزيد من عدد المسائل التى تعالجها ولكن شرط هذا هو البناء على أساس متين والمثابرة ، وينبغى للمثابرة أن لا تختلط بالعناد أو اباء الرجوع عن الخطأ اذا تبين ، عجزا أو كبرياء ، وكنت أدعو الله ان يجنبك هذه الشبهات .

وراقبتك من بعيد ، وقلبى يخفق ، وانت تساق شيئا فشيئا الى اغفال عزمك فى الابتعاد عن تولى المناصب ، فقد حكمت عليك الظروف وحرصك على الصالح العام أن تتولى الدفة بنفسك ، فتكسب الوقت ، لا يلتوى الطريق أمامك ، وتظهر للناس سافرا فيزيد نجاحك من ثقتهم فيك . ودعوت الله أن يزيد من حلمك وصبرك بقدر ما زاد من مسئوليتك وان يروض

نفسك على قهر الغضب والامتعاض والألم كلما سمعت نقدا ليس من ورائه شهوة رخيصة •

ورأيت بعض أصدقائك المقربين ممن وثقت بهم كل الثقة قد حادوا عن طريقك فأقصيتهم عن الركب ، وكنت تحسب أن الاخلاص الذى ربط بينكم يقوى على غوائل الزمن والنفس ، وكنت أدعو الله أن يجنبك الشعور بالمرارة لتبقى نظرتك للناس أطهر ما تكون من الشوائب •

كل شخص جاءك اما يشكو من ظلم وقع عليه أو يشيد بمجهود بذله ، ودعوت الله أن لا يقلل هذا الضعف فيهم من تقديرك لكرامة الناس عامة •

ولكن لعل أكثر ما كان يشغلنى هو معاملتك للناس ، أردت أولا أن تسير اليهم وتلقاهم وتتركهم يحيطون بك ثم سرعان ما تبينت أن النظرة القريبة غير صادقة ، وأن العدد تفصيل ، وأنت مشغول بالمبادىء والعموميات ، وأن الوقت ثمين ينبغى أن يحتجز للتأمل والتدبر فاذا بك تقسر ــ وهى غير راضية ــ على أن تنخلع عن الناس، فكأنما تقيم بينك وبينهم سدا لا يتجاوزونه، حتى يسلم لك كيانك قويا لا يضيع ولا يتبدد ، وكنت أدعو الله أن يخفف عنك آلام هذه الوحدة المفروضة التى ليس منها مفر •

ولم أسلم من الهواجس : ترى كيف وقع نكران الجميل على نفسه ؟ انه خدم أناسا كثيرين ورد اليهم حقوقهم ، ورفعهم من ذل الى كرامة فاذا ببعضهم لا يقنع بما أصاب من خير ، ويطلب المزيد وبعضهم يظن أنه أقل من غيره انتفاعا ، فيغتم ويحسد ، بل منهم من نسى الحاضر سريعا . ولم يجدوا جميعا أحدا غيرك يحملونه مسئولية خيبة آمالهم الوضيعة .

والشعور بنكران الجميل ممن تحسن اليه سم تذوى عليه فضائل الروح ، ودعوت الله أن يهبك من الأناة والحكمة والرضى ترياقا يقيك هذا السم فلا يصدك عن شىء من خير أنت فاعله أن تمد لرجل يدك فيعضها .

وقلت آخر الأمر : عونك اللهم ! خذ بيده ! كانت نفسه من قبل خالصة له ، ربما عرفت لواذع الغضب والألم والحسرة والندم ، ولكنها كانت تجيئه موزعة من أفراد ، مثلمة الأطراف، مخففة الوقع ، سريعة الزوال . ربما آمض روحه ما يرى وما يحس من المظالم التى تحيق بقومه ولكنه ألم المتفرج والمشاهد . أما اليوم فهو يعانى رد المظالم بيديه ، هو فى صراع دائم مع قوى الشر ، تحاربه بكل سلاح ، حتى سلاح النفاق ونكران الجميل . ان نفسه أصبحت كوعاء ينصب فيه بقوة السيل تيار لا ينقطع من الهواجس والأحاديث والخواطر والتململ والعذاب . الجروح والندوب . هى قدر يفور على النـــار ، محـــكمة الغلق . لأن

الافصاح دليل الضعف • فوداعا للتسلية الأغانى والأشعار ونزهة الغروب على ضفاف النهر ، بين أهله وأولاده وكنت أدعو الله أن تتسع نفسك كالبحر لا يعكر ماءه ما يلقى فيه من خبث •

وحمدت الله أنك لم تجعل لأحد أن يقول عنك • حرنا فى أمره ! ان له شخصيتين متناقضتين ، كما قالوا عن كثير من شواذ الحكام الذين فتحوا باب الرجاء لأهلهم فى مبدأ العهد بهم فلما دخلوه وجدوا من ورائه العذاب والشقاء ، ثم هلكوا حين غلب شرهم الأصيل على خيرهم الزائف ، وحين انطفأ ذكاؤهم الخلب وبقيت حماقتهم وجهالتهم ، وهى — لطول الخفاء — أشد بشاعة من ذى قبل •• أما أنت فليس لك الا شخصية واحدة ، باطنك ظاهرك ، فنجوت من العقد والتـأويلات ، وأعفيت أهلك من الشكوك والمفاجآت ، ومع رائد مثلك يضمن السائر أن يصل الى غايته وان طال المدى •

وهنا استوقفنى الأستاذ وهو ينظر لساعته ويقول لى :

— هل أتم أنا كلامك ؟ اننى أعرف بقية قولك لأننى قرأت مذكراتك • ستذكرنى — وهل أنا غافل ! — بالتسامح والانتباه لحقوق الفرد كانسان حى قبل أن يكون حجرا مسخرا فى بناء المجتمع ، والتفريق بين ايمانك بأن رأيك صواب وبين ايمانك بأنه كل الصواب ، وأن الاخلاص وصواب الرأى توأمان ولكنهما توأمان غير ملتصقين •

ونظر الأستاذ الى ساعته مرة أخرى ، ثم بدا لى انه نسينى، ونسى كل ما حوله ، وغاب عن الوجود ، كأنما يستمع لأصوات بعيدة ، أو يجمع كل قواه استعدادا لحمل عبء ثقيل جديد ..

ولما عاد له انتباهه التفت الى طويلا وخيل لى أنه ود لو استرسل معى فى الكلام وفتح لى مغاليق قلبه ، ولكنه لم يفعل بل واجهنى صامتا وهو يتأملنى مليا ثم وقف وقفة الجندى الصارم ومد لى يده قائلا :

ـ انى انتظر منك أن تقوم بواجبك

وها قد فعلت !

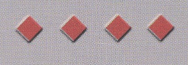
فهرس

الكتاب الأول : الأمس

الكتاب الثاني : اليوم

رقم الايداع ٩٥/٥٣٢٨
I.S.B.N 977-01-4427-4





هذا هو العام السابع من عمر «مكتبة الأسرة» .. ومنذ سنوات طوال لم يلتف الناس حول مشروع ثقافى كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافى الضخم حتى أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام. واستجبنا لهذا المطلب الجماهيرى العزيز إيمانًا منا بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها؛ فى إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة دورها الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبة الأسرة» .. أن تعيد الروح إلى الكتاب مصدرًا هامًا وخالدًا للثقافة فى زمن الإبهارات التكنولوجية المعاصرة.. وها نحن نحتفل ببدء العام السابع من عُمر هذه المكتبة التى أصدرت (١٧٠٠) عنوانًا فى أكثر من «٣٠ مليون نسخة» تحتضنها الأسرة المصرية فى عيونها وعقولها زادًا وتراثًا لايبلى من أجل حياة أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك





١٥٠
قرش